مقدمة في
فقه أصول الدعوة

شرح حديث جبريل
(الإسلام والإيمان والإحسان)

بقلم
أحمد سلام

دار ابن حزم
بيروت

دار الهجرة
صنعاء

مقدمة في
فقه أصول الدعوة

مقدمة في

فقه أصول الدعوة

شرح حديث جبريل
(الإسلام والإيمان والإحسان)

بقلم
أحمد سلام

دار ابن حزم
بيروت

دار الهجرة
صنعاء

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

دار الهجرة
للنشر والتوزيع صنعاء - اليمن الشمالي - ص.ب. ١١٥٤٣

دار ابن حزم
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب: ١٤/٦٣٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي

هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد: فقد ران على فهم كثير من المسلمين لأصول دينهم، كثير من الجهل والانحراف، ووهنت بالتالي صلة حياتهم بهذه الأصول، وتباعد ما بين مفاهيمهم وتصوراتهم ومناهجهم، وبين هدي أصول الإسلام، بأقدار متفاوتة، وأشكال مختلفة.

وإذا كانت تصورات الأمة، في تحديد الحق والباطل، ومفاهيمها في معرفة الخير والشر، هي التي تحدد مستقبلها، وترسم أبعاد مصيرها ومسارها، فإن من المنتظر، بعد أن تخلخلت تصورات المسلم وعقيدته، وضعفت الصلة بين هذه العقيدة، وبين عواطف المسلم وأخلاقه من جهة، وبين منهج المسلم وسياسته من جهة أخرى، من المنتظر أن يضطرب مسار الأمة، وتتوالى عليها الصدمات، ثم تهتز كثير من المقولات، التي وضعتها في مقام المسلّمات الثابتة، وتغص ساحتها بالاختلافات، وتمتلىء آفاقها العلمية بسحب الحيرة والاضطراب.

ورغم كل هذا، فإن المسلم لا ينسىٰ أبداً، أن دعوة الإسلام الأولى، هي التي أصّلت العقيدة المتميزة بصفائها ورسوخها، وصححت مسار العقل، ووجهت حركة الشعور

والعاطفة؛ وأعادت صياغة خُلُق الإنسان، وأقامت على ذلك، أخلاق المجتمع وعلاقاته، وبالتوحيد المضاد للتعدد في المصادر، نصوصاً وتأويلاً، وبالألوهية المناهضة للإشراك ولاءً وسبيلاً، أقامت تلك الدعوة قاعدتها، وصنعت مفاهيمها، وتحركت بالأمة نحو التكامل والتعاون، ونحو النهوض لتخطّي العقبات التي كانت تعترض سبيلها.

فلا بد للأمة من العودة إلى ربانية تصوراتها، وعصمة منهجها، ولا بد لها من تطهير تصوراتها الكلّية، ومثلها الأوّلية، ومبادئها التوحيدية، من أدران الانحراف، وعوج المفاهيم التي خالطت صفاء أصولها على مر التاريخ.

ولا بد للأمة من أن تعيد ترتيب أوراقها، وتراجع مفاهيمها ومواقفها، بالعودة إلى أصولها الثابتة، وتقييم تلك المفاهيم والمواقف على ضوئها. وإحياء هذه الأصول في حياتها، للإنطلاق من خلالها، والرجوع إلى هديها، وإعادة بناء مقومات حياتها.

ومن أجل ذلك كتبت هذه الرسالة، إسهاما بالمستطاع في إحياء أصول فقه الدعوة، وتجديد دورها. وحديث جبريل عليه السلام، من أجمع الأحاديث لأصول الدين، وهي كما ذكرها رسول الله ﷺ: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

وقد أحسن الإمام مسلم رحمه الله، صاحب الصحيح المشهور، إذ افتتح بهذا الحديث جامعه، عقب الفراغ من مقدمته القيمة، حول رواية الضعيف والعمل به، وفي ظني، أن ما دفع هذا الإمام رحمه الله لهذا التقديم، إدراكه لعظيم قدر هذا الحديث، وفهمه لبعيد مراميه. إذ أن رعاية الأصل وتقديمه، أجدر وأولى من الابتداء بفرعه، وإذا كان تصحيح النية في العمل، شرطاً لصحته، فبيان الأصول التي يتفرع منها العمل، أولىٰ بالتقديم من ذاك الفرع.

فأما شرح هذا الحديث، وهو جامع لأصول الدين كما ترى، فيتطلب استيفاء فروع الإسلام وأحكامه، والإحاطة ببيان وتفصيل كلّياته وأصوله، وتلك مطالب أشبعها العلماء بحثاً، ووفوا أغراضها درساً.

فالغرض الذي رميت إليه فيما كتبت في هذا الشرح، يجمع أموراً ـ على إيجازها ـ، رأيت لها أهمية وضرورة، وهي مبينة فيما يلي:

١ ـ شرح وجيز، يجمع أصول الدين: عقيدة، وأعمالاً، ومنهجاً، يحتاجه كل من لا يرغب في الرجوع إلى المطولات، أولا يتمكن منه.

٢ ـ بيان دور هذه الأصول، في بناء مفاهيم المسلمين،

وتصحيح أفكارهم، وتقويم عواطفهم وأخلاقهم. وبالتالي: بناء حاضرهم، والإعداد لمستقبلهم.

٣ ــ بيان ترابط هذه الأصول فيما بينها، وتوضيح التكامل المنهجي الذي يتكون من تأثير تصورات الإنسان ومفاهيمه، على شعوره وسلوكه، وعلى مجتمعه بعد ذلك.

٤ ــ محاولة إنماء النظرة المنهجية في عقل المسلم، ليتخذ من أصول الدين، منطلقه في النظر والفهم، وتقييم مشكلات الواقع الفكرية والمذهبية على ضوئها، ومعالجتها على أساسها.

وأسأل الله التوفيق والسداد، والقبول والمغفرة.

والحمد لله أولاً وآخراً

أحمد سلام

يوم السبت ١٥ شوال ١٤٠٩ هجرية

١٩٨٩/٥/٢٠ ميلادية

نص حديث جبريل عليه السلام

عن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال:

(حدثني أبي عمر بن الخطاب، قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه[1]، وقال:

«يا محمد، أخبرني عن الإسلام»، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

قال: «صدقت». قال: فعجبنا له، يسأله ويصدِّقه. قال: «فأخبرني عن الإيمان». قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

---

(١) على فخذي نفسه، كهيئة المتعلم.

قال: «صدقت». قال: «فأخبرني عن الإحسان». قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك». قال: «فأخبرني عن الساعة»[1]. قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: «فأخبرني عن أماراتها». قال: «أن تلد الأمة ربتَّها، وأن ترى الحفاة العراة العالة؛ رعاء الشاء، يتطاولون في البنيان».

قال: ثم انطلق، فلبثت مَلِيّاً، ثم قال[2] لي: «يا عمر، أتدري من السائل»؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم»[3].

---

(١) يريد: عن وقتها.
(٢) القائل هو رسول الله ﷺ.
(٣) رواه مسلم: ١/٣٧ ـ ٣٨.

الفصل الأول

الإسـلام

أولاً: مفهوم الإسلام:

الإسلام لغة: الاستسلام والانقياد(١).

واسم الإسـلام، علمٌ على الـدين الـذي أنـزلـه الله في القرآن، على نبيه محمد ﷺ، ليبلِّغـه للناس، كـما قال تعـالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾(٢).

وهـو معنى التوحيـد الذي بعث الله بـه أنبيـاءه جميعـاً. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾(٣).

ويطلق الإسلام، ويراد به الأعمال الظاهرة، كما في حديث جبريل: «الإسـلام أن تشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الـزكاة، وتصـوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

---

(١) لسان العرب: ٦/٣٤٥. (٢) سورة المائدة: آية ٣.
(٣) سورة آل عمران: آية ١٩.

فإذا خلا القلب من التصديق، الذي هو أصل الإيمان، كان إسلام صاحبه، مما تثبت به عصمة المال والدم، وأحكام الدنيا، دون أحكام الآخرة، كما يشير قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإذا قالوها؛ عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»[1].

وهذا إسلام فاسد ديناً، لأنه مقتصر على الظاهر، وحقيقته: النفاق المساوي للكفر في ميزان الله تعالى، ومن هذا الصنف: شهادة المنافقين لرسول الله ﷺ بالرسالة، فقد ضرب الله بها وجوههم، وفضح كذبهم فيها، كما في قوله لنبيه ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[2].

وذلك رغم أن الشهادة برسالة النبي ﷺ؛ ركن من أركان الدين، وشطر الشهادة لله بالوحدانية.

فإذا اجتمع تصديق القلب وإقراره، مع الأعمال الظاهرة، كان ذلك هو الإسلام الصحيح، الذي فرضه الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[3].

---

(١) أخرجه الستة وغيرهم، وهو متواتر عن جمع من الصحابة.

(٢) سورة المنافقون: آية ١. (٣) سورة النمل: آية ٨١.

وكما في الحديث الصحيح، عن سفيان بن عبدالله الثقفي، قال: «قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحداً بعدك ـ وفي حديث أبي أسامة: غيرك ـ قال: «قل آمنت بالله، ثم استقم»[1].

وهذا الإسلام الصحيح، مشتملٌ ولا بد على أصل الإيمان، إذ أن العمل بغير تصديق وإقرار قلبي، نفاق مجرد، كما مر بنا، وقد جمع رسول الله ﷺ بين الإيمان والتلفظ به وبين الاستقامة في الدلالة عليه.

وهذا الإسلام، أو الاستسلام والانقياد من العبد لدين الله، يتفاضل فيه المسلمون، بالزيادة والنقص.

ففي حديث عبدالله بن عمرو بن العاص: (أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»)[1].

وفي الحديث الذي بعده: (أي المسلمين خير؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده») [1].

فأعمال الإسلام تتفاضل فيما بينها، كما أن التزام المسلمين بها؛ يتفاضل كذلك، وفي ذروة الاستسلام والانقياد من الناس، الأنبياء الذين اختارهم الله لرسالاته، وأتباعهم من

---

(١) صحيح مسلم: ٦٥/١.

الحواريين والربانيين: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾(١).

فهؤلاء قد تم استسلامهم: عملاً ويقيناً، وقلباً وقالباً، وإن كان في المسلمين من هم دونهم في لزوم أحكام الشرع، والانقياد لمنهجه.

وأما معنى إسم الإسلام الذي هو علم على الدين المنزل على نبينا محمد ﷺ، فهو كامل بإكمال الله سبحانه له، تام بشهادته جل وعلا، لا يقبل الزيادة أو النقص بحال. قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ﴾(٢).

فدين الله تعالى، منزهٌ عن النقص والخلل، وربنا جل شأنه، لا يرضى لعباده الكفر أو العصيان أو التقصير. ودينه متضمن لإرادته.

والإسلام بهذا المعنىٰ، يشمل كمال الإيمان، مع كمال الاستسلام بالأعمال، ولا ينسب إلاّ إلى الأنبياء المعصومين، في

---

(١) سورة المائدة: آية ٤٤.

(٢) سورة المائدة: آية ٣.

علمهم وعملهم، مثلهم مثل إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [1].

فإسلامه عليه السلام، إسلام قلب ولسان وجوارح، فهو شامل للإيمان والإسلام. وكل ما أمر الله تعالى به، فهو متصف بالشمول للإيمان والإسلام تامين، لأن الله يأمر بالعدل والإحسان، ولا يأمر بالفحشاء، ولا المنكر، ولا يرضىٰ بها، بل قد نهىٰ عنها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [2].

وإذا ذكر الإسلام بمفرده، كما في قول إبراهيم عليه السلام، فهو شامل للإيمان والإسلام، أما إذا اجتمع الإيمان والإسلام في سياق، كما في حديث جبريل، فيعني الإسلام الأعمال الظاهرة، والإيمان إقرار القلب وتصديقه.

فأما قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [3]،

---

(١) سورة البقرة: آية ١٣١. (٢) سورة النحل: آية ٩٠.

(٣) سورة الحجرات: آية ١٤.

فالمقصود منه نفي كمال الإيمان الواجب، وليس أصله الـذي ينجو به العبد من الخلود في النار، ويثبت إسلامه. ولو كان المنفي هو أصل الإيمان، لما أمرهم الله أن يقولوا: أسلمنا، إذا هو على هذا الفرض الباطل، أمر بباطـل، والله تعالى متنـزه عنه.

ويـدل على أن المنفي لهـو كمال الإيمـان، وليس أصله: قول الله تعالى في الآية: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾. إذ أن العمل العاري عن تصديق القلب لا وزن له عند الله، لأنه من أعمال النفاق. والآية تعدهم أن لا يفوتهم شيء من جزاء أعمالهم الصالحة، وذلك قـاض أن هذه الأعمال مقبولة، وليست بـاطلة في نفسها، وذلـك ما لم يلحقها بعد ما يحبطها.

ويدل أيضاً على أن المنفي كمال الإيمان، قول الله تعالى في خواتيم السورة: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(١).

فهو يثبت لهم مرتبة الإسلام، كما يدل أمر الله لنبيه أن يخاطبهم: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾. ولو كانوا كـاذبين لعنفهم وفضحهم مثل غيرهم من المنافقين.

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٧.

وخـلاصة الأمـر أن قومـاً ادعوا مـا لم يبلغوا مـرتبة من الإيمان، فأعلمهم الله أنهم لم يبلغوا هذا المـرتبة، ولم يحققـوا صفاتها، وأمرهم بالتواضع، وحسن الطاعة والخضوع.

ثانياً: الشهادتـان:

تعني شهادة أن لا إلٰه إلا الله، نفي حق العبادة، عن كل ما عبد من دون الله تعالى، فكل مـا عبد من دون الله، من مَلَكٍ أو بشر أو جماد، مما خلق الله، فقد عُبد بالباطل، وعبادته باطلة، لا حاصل لها إلا الهلاك والضلال والضياع، وتعني هذه الشهادة كذلك، إثبات حق العبادة خالصاً لله وحده، ووجوب صرف العبادة بأنواعها إليه سبحانه، صحيحة غير مختلة، كاملة غير منقوصة.

وهذه المسلَّمة هي أساس التوحيد الأول.

وتعني شهادة أن محمداً رسول الله، أنه ﷺ هو الرسول من عند الله، أنزل عليه كتابه، واثتمنه على دينه، وكلفـه بتبليغ رسالته، وأن الله تعالى قد عصمه من الزلـل في تبليغه لهـذه الرسالة، وجعل طاعته مستلزمة لطاعة نبيه ﷺ، ومتضمنة لها، فهو وحده ﷺ، من دون الناس جميعاً، واجب الطاعة، في أمره ونهيه، وفي بيانه وتعليمه، أمره واجب، ونهيه شرع، وبيـانه وتعليمه دينٌ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ

إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[1].

وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[3].

ومـا جعل الله في دينـه، لأحد غـير نبيه ﷺ، أن يطاع استقلالاً، فمن جعل طاعة مثلهـا لغير رسـول الله ﷺ، فقد اتخذ من دون الله أولياء، بغير علم ولا هدى، وخالف أمر الله حيث يقول ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[4].

وقد قسم الإمام الشافعي رحمه الله تعالى بيان ما تعبد الله به عباده، إلى نص واجتهاد، وذكر من أقسام النص: «ومنه ما سن رسـول الله ﷺ، ممـا ليس لله فيـه نص حكمٍ، وقـد

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٢٥.
(٢) سورة النساء: آية ٦٤.
(٣) سورة النساء: آية ٦٥.
(٤) سورة الأعراف: آية ٣.

فرض الله في كتابه طاعة رسوله ﷺ، والانتهاء إلى حكمه. فمن قبل عن رسول الله ﷺ، فبفرضُ الله قبل»[١].

ثم ذكر الاجتهاد، وضرب عليه أمثلة، إلى أن قال: «وهذا يدل على أنه ليس لأحد، دون رسول الله، أن يقول إلا بالاستدلال، بما وصفت في هذا، وفي العدل، وفي جزاء الصيد، ولا يقول بما استحسن، فإن القول بما استحسن شيء يحدثه لا على مثال سبق»[٢].

وهذا الذي ذكره الإمام الشافعي رحمه الله، ظاهر في بطلان طاعة كل أحد، غير رسول الله ﷺ، طاعة أصلية مستقلة، فكل أحد من الناس غيره، يحرم عليه أن يقول لأمرٍ: حلال، أو حرام، إلا بدليلِ نصّ أو اجتهاد.

وطاعة رسول الله ﷺ، تشمل لزوم أمره ونهيه، وتشمل كذلك لزوم هديه وبيانه، فيما بيَّنه عن ربه، من تفسيره لأمر الله تعالى، فإن الله تعالى بعث نبيه معلماً مبيِّناً، كما بعثه مبلغاً، يدل على ذلك، كتاب الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٣].

---

(١) الرسالة: ص ٢٢. (٢) الرسالة: ص ٢٥.
(٣) سورة الجمعة: آية ٢.

ومن هذه الحكمة التي أوتيها رسول الله ﷺ، بيان مجمل الكتاب من الفرائض، في العبادة والحدود، وفي تعيين المعنى المراد من المشترك، وتأويل المتشابه، وغير ذلك من تخصيص أو إطلاق[1].

وقد كان رسول الله ﷺ يبين ذلك لأصحابه، وعنه كان الصحابة يتلقونه، كما ذكره جابر بن عبدالله الأنصاري في حجة الوداع، ورواه مسلم عنه في قوله رضي الله عنه: «ورسول الله ﷺ بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء، عملنا به»[2].

وسنة رسول الله ﷺ موافقة للكتاب، في كل ما سنَّه رسول الله ﷺ، لا تخالفه بحال من الأحوال، قال الإمام الشافعي رحمه الله: «إذا كان الله فرض على بنيه اتباع ما أنزل إليه، وشهد له بالهدى، وفرض على الناس طاعته، وكان اللسان ـ كما وصفتُ قبل هذا[3] ـ محتملاً للمعاني، وأن يكون كتاب الله ينزل عامّاً يراد به الخاص، وخاصاً يراد به العام، وفرضاً جملة بيَّنه رسول الله ﷺ، فقامت السنة مع كتاب الله هذا المقام، لم تكن السنة لتخالف كتاب الله، ولا تكون السنة

---

(١) انظر أمثلة ذلك في الرسالة للشافعي.

(٢) مسلم: ٨٨٦/٢.

(٣) الكلام للإمام الشافعي.

إلا تبعاً لكتاب الله، بمثل تنزيله، أو مبينة معنى ما أراد الله، فهي بكل حال متبعة كتاب الله»[1].

فبيان رسول الله ﷺ للقرآن، وتفسيره له، بيان معصوم مسدد، وهو مقدم على كل بيان أو تفسير يخالفه، ولا يتقدمه بيان أو تفسير بحال، لما تقدم من الأسباب.

ووجوب لزوم سنة رسول الله ﷺ، أمراً ونهياً وتشريعاً، وبياناً وتعليماً وتفسيراً، دون شك ولا حرج ولا تردد؛ خلاصة قولنا: أشهد أن محمداً رسول الله.

وهذه المسلَّمة هي الشطر المتمم لشهادة التوحيد.

ومن هذا الفهم لشهادة التوحيد، ندرك أن هذه الشهادة، من أخطر كلمة في حياة البشرية.

فهي إعلان تحرر من كل ألوان التبعية والانقياد، ومن جميع أنواع الطاعة والولاء، سواء ما انحرفت البشرية إليها في ظلمات الماضي، أو ما توحي به شياطين الإنس والجن وتزينه لأوليائها. ولا استثناء في وجوب إخلاص تبعية العاطفة والحب، والقول والفعل: لله وكتابه، ودينه ورسوله.

فالحب كله لله والتوكل والدعاء والنذر والتذلل

---

(١) الرسالة: ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

والطاعة لله، فله نسعى ونحفد [1]، وإياه نخشى ونستعين ونعبد، وله النذر والذبح، وذلك على وفق ما جاء في كتابه، أو شرعه في وحيه إلى رسوله، لأن عبادة الله بما لم يشرع، شرك لا يقل عن عبادة غيره سبحانه.

والشهادة إقرار بتمام الخضوع لما جاء من عند الله، وتمام اتباعه، دون شك ولا تردد، ولا حرج ولا توقف.

وهي إعلان ولوج منهج للحياة، يستمد من مفاهيم التوحيد، وأصول التوحيد ونظم التوحيد، وأخلاق التوحيد.

ومن ثمَّ، فهي تستلزم فهم العبادة الصحيحة التي ترضي الله سبحانه، وإدراك أبعادها وآثارها، ووعي نظام التوحيد: شريعة واقتصاداً، واجتماعاً وتربية، وسياسة وبناءً، وغاية ووسيلة، وتمييز أخلاق التوحيد، من مصادرها الربانية، وأصولها الصحيحة، بعيداً عن رجس الأهواء المضلة، وعماية الشبهات المظلمة، والسبل المنحرفة.

وهي كذلك، تقوم على توحيد مصادر العلم والفهم، والانطلاق منها إلى توحيد الأخلاق والأهداف التربوية، وتوحيد الآمال والمشاعر، ثم توحيد الخطى والأعمال، وصولاً إلى توحيد الصف والكلمة والمسار.

(١) نقبل بالطاعة سريعاً.

فشهادة التوحيد على هذا، منطلق رباني، يعيد بناء عقل الإنسان، وينظم تفكيره، ويسدد عواطفه، ويقوم سلوكه ويربي أخلاقه، ويؤهله لبناء أمته، وتحقيق خلافته.

وإذا كان منهج التوحيد يتكون من أصول وفروع، وعبادة ومعاملة، واقتصاد وإدارة، وتربية وسياسة، ويمتدُّ حتى يشمل من حياة المسلم كل كبيرة وصغيرة، فإن اتباع صراطه المستقيم، وسلوك سبيله القويم، يبقىٰ أمنية عاطلة عن العمل، يعجز المسلم عن تحقيقها، بالمعنى الكامل، إلا أن تستبين له سبيل المجرمين ويعرفها، وتتضح له معالم الجاهلية وشرورها: سياسة وتربية، ووسيلة وغاية، وأصولاً وفروعاً، وبدون ذلك لا عاصم له من الانخداع بأوهام الباطل، والاغترار بزخارف القول وألاعيبه، فإذا به يحطب بجبله جهلاً، ويضرب بسيفه غفلة، لا يصده عن ذلك إخلاص، مهما سمىٰ إخلاصه، ولا تحجزه غيرة، وإن تزايدت غيرته.

وأجد الحاجة ماسة للوقوف عند هذه المشكلة مرتين:

الوقفة الأولى، مع فهم شهادة أن لا إله إلا الله:

إن العبودية هي الغاية الكبرى للخلق، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

(١) سورة الذاريات: آية ٥٦.

والإنسان هو حامل هذه الأمانة الكبرى، التي أشفقت منها السموات والأرض: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1].

والركن الأول من أركان هذا الدين، إنما هو شهادة التوحيد، وبها تترسخ معاني عبودية الإنسان، خالصة لربه، شاملة للقول والفعل، والحب والبغض.

فالعبودية شعار المسلم ودثاره، ومبتدؤه ومنتهاه، ومنهجه وغايته، وهي منهج الفرد والجماعة، والرعاة والرعية، والحاكم والمحكوم، كما هي منهج للحياة على تعدد مجالاتها، واتساع حاجاتها، وتجدد أحوالها، وهذه الإحاطة في شمول خضوع الأمة لأمر معبودها، مفهومة من شهادة التوحيد، ومستمدة من معناها، لا ينتطح في هذا كبشان، ولا تُقرع عصوان.

ويلزم من هذه المسلَّمة، أن يكون مرجع السلطات كلها في ميزان الإسلام، إلى أمر الله ونهيه، وتشريعه ووحيه، سواء في ذلك سلطة التنظيم والتنفيذ، وسلطة القضاء والتشريع، وسلطة الأمر والنهي، والإباحة والمنع، فكل سلطة أو (سلطان) من الله، فهو حق وعدل، لأنه من عند الله، ولأن الله وحده

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٧٢.

مالك له، فحلاله في ميزان المسلمين حلال، وحرامه حرام، وواجبه عليهم واجب، لا يملك مسلم حيال أمر الله، إذا ما تيقن أنه أمره حقاً؛ شكاً ولا اختياراً ولا حرجاً: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[1].

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[2].

ويلزم من هذه المسلَّمة أيضاً، أن كل تشريع أو أمر، أو نهي، أو طاعة، ليس مستمداً من سلطان الله، فهو باطل، لا يجوز ابتداؤه، ولا يحل اتباعه، ولا تشرع موالاته، فإذن الله ورضاه في كل أمر، شرط لا غنى عنه لجوازه، وإلا فهو عبادةٌ لصاحب الأمر، من دون الله، واتباع للطاغوت، وانقياد له: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[3].

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٣٦. (٢) سورة النساء: آية ٦٥.
(٣) سورة النساء: آية ٦٠.

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾[1].

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾[2].

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

فالرجوع إلى كتاب الله تعالى، وإلى وحيه وشرعه واجب، لمحاكمة كل سلطة، فردية أو جماعية، تمثل أقلية، أو أكثرية، فما أقره الله في كتابه، أو في سنة نبيه ﷺ، كانت له السلطة المشروعة، بإذن الشارع الواحد، تقدست أسماؤه، وذلك هو سبيل التوحيد، وطريق الإيمان والإسلام.

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٥١. (٢) سورة الأعراف: آية ٧١.
(٣) سورة يوسف: آية ٣٩، ٤٠.

وخلاف ذلك طريقٌ للشرك، وسبيل الطاغوت، سواء استمدت السلطة من أقلية أو أكثرية، لا يغني اختلافَ الأسماء أو الجهات، ولا يؤثر في حقيقة الانحراف عن دين الله.

وفي هذا الأمر الخطير، الذي خبط فيه كثير من المسلمين، ينبغي التفريق بين قضيتين مختلفتين كل الاختلاف، متباينتين كل التباين، القضية الأولى عرفها المسلمون في كتابهم، وتلقوها من نبيهم، والتزموها في سياستهم، وهي قضية تكليف الأمة بحمل الأمانة، والنهوض بتكاليف العدل، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[1].

فحمل الأمة للأمانة الملقاة على كاهلها، طاعة لأمر الله، واتباع لدينه، فهو تجسيد لعبودية الأمة، واستكمال لتوحيدها لربها، وهذا مما يزيد في شرفها، ويرفع قدرها عند الله، إذا أحسنت حمل أمانتها، ورعتها حق رعايتها، مثلما يضعها موضع العقاب والسخط، فيما لو فرطت فيها، أو اتبعت في ذلك أهواءها.

---

(١) سورة النساء: آية ٥٨.

ومن مقتضىٰ هذه الأمانة، أن تتولى الأمة اختيار أميرها، وتراعي في اختياره ما شرع الله لها، فيجب عليها أن تختار القوي الأمين، القادر على القيام بالواجب، والأمين على الحقوق، ولا يحل لها أن تعدل عن ذاك الاختيار، لا مع أقلية ولا مع أكثرية. كما يجب عليها أن تمكن أهل العلم والأمانة، ليؤدوا واجب الاختيار، وفق ما يمليه عليهم دينهم، ولا يجوز لها أن تكل هذا الأمر إلى السفهاء، وأهل الانحراف والطيش، أو من عرف بخارم من خوارم العدالة والأمانة.

ومن مقتضى هذه الأمانة، أن ينصح الناس لولي الأمر، ويقوموا بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويقوموا سلوكه إذا اعوج، ويعينوه على الحق، ويبينوه له، ويشيروا عليه به، كما يجب عليه، أن يقبل نصحهم، ويقوم فيهم بالقسط، ويرفق بهم، ويستشير أهل الرأي منهم.

والأمة في ذلك كله، تسير وفق دين الله، وحسب شرعه وهديه، وهي بعد ذلك محاسبة عن عملها، فإن أحسنت فلها الحسنى، وإن أساءت، فلها جزاء إساءتها، قال رسول الله ﷺ: «ألا كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته»[1].

---

(١) قطعة من حديث رواه الشيخان وغيرهما، واللفظ لمسلم: ٨/٦.

والمربوب المسؤول المحاسب كما قدمنا؛ وكما هو معلوم؛ لا يملك اختياراً ولا تبديلاً.

هذه هي القضية الأولى، وهي كما ترى صورة من نظام التوحيد الذي جاء من عند الله.

أما القضية الثانية، فهي مشكلة ترجع في جذورها، إلى الصراع الذي دار في أوروبا قبل قرون، بين كنيسة أرادت تسخير الدين لأحط غرائز البشر، وشعوب لم تر في سلطان هذه الكنيسة، سوى حب التسلط، وتكبيل الحريات، والنهم الجشع للمال والقوة، ثم انتهى هذا الصراع بهدم سلطان الكنيسة الباغية، واستقر أمر تلك الشعوب، على تأليه معبود جديد، ظنت أنه سيكون الخادم المطيع لمطالبها، هذا المعبود الذي ارتضته العقلية المشوهة المنحرفة، أسموه حكم الشعب، أو سيادة الأمة، واعتبرت الأمة ـ أو الشعب ـ بموجبه، مصدراً للسلطات كلها.

في ضوء مثل هذا النمط الفكري، البعيد عن هداية الله، والبعيد عن مقتضيات العقل السليم، ليس عجباً أن تهدر القيم والأخلاق، وتأتي وسائل النظام، متظافرة على معرفة رأي الشعب، أو أكثريته ـ نظرياً ـ ما دام هذا الشعب هو السيد المطاع، والآمر الناهي، والمرجع الذي تستمد منه السلطان، ويلتمس في أعتابه الهدى والرشاد، وقد كان من ثمار هذه

الفلسفة، أن قوانين الانتخابات، سوّت في حق الاقتراع والترشيح؛ بين أفراد الشعب جميعاً، دون اعتبار لدين أو خلق أو فضيلة، لا فرق بين صاحب الماخور وراعي الكنيسة، أو بين النصراني المستقيم، ومن ينكر الأديان كلها، ما دام هؤلاء جميعاً جُزءاً من الشعب صاحب السيادة والعصمة، وما داموا مخولين حق الانتخاب قانوناً.

وليس غرضنا مناقشة هذه الفلسفة، أو النظر في مدى أمانة القائمين على أنظمتها، فأهم من ذلك أن نبين، أن الاستعمار الصليبي، الذي أناخ بكلكله على العالم الإسلامي، بعد سقوط الخلافة العثمانية، قد زرع بذرته الخبيثة في هذه البلاد، وأنشأ الأحزاب التي قامت على التنكر للدين، ولم يبخل عليها بمال أو منصب أو دعاية، ولم يترك بلاد المسلمين، حتى سلم مقاليد التشريع والسلطة لهذه الأحزاب، فقامت من بعده بنشر فكره المحارب للدين، وأقامت أنظمة حكم اعتمدت فلسفة الديموقراطية، واعتمدت كذلك وسائلها في الحكم، من مجالس نيابية، تأخذ بنفس السبل البرلمانية الغربية، من اعتماد للأكثرية، والتسوية بين (المواطنين) في الحقوق السياسية، بصرف النظر عن الدين والخلق والكفاءة والعلم، وبمعزل عن اعتبار العدالة والأمانة، حتى اتسع المجال لكل المنحرفين عن عقيدة الإسلام وشريعته، فإذا بهم هم أهل

الحل والعقد، في ديار الإسلام، وإذا بهم أهل الرأي والأمانة!!!.

إلا أن الطامة الأدهى، أن بعض (المجتهدين الذرائعيين)، بسبب من إيحاءات النظرة السياسية التي زرعها الاستعمار الصليبي في بلادنا، وانعكاساتها على البيئة الخاصة، التي نضجت أفكارهم في أوساطها، لم يستطيعوا التفريق بين الأحكام التي تتغير بتغير المصالح والأحوال، وبين الثوابت التي يعتبر الاجتهاد في دائرتها، جهلاً عريضاً بالإسلام، أو تجاهلاً لأصوله وثوابته.

فانطلقوا يلوون أعناق النصوص، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ليجعلوا الإسلام مرادفاً للإشتراكية الماركسية مرة، والديموقراطية الصليبية أخرى، وصنواً للقومية الجاحدة طوراً ثالثاً، وكل ذلك جرياً وراء سراب المصلحة الموهومة، ورعاية لمتبدلات ومتغيرات، كانت تلمع بريقاً حتى تأخذ بأبصارهم، ثم تختفي كأنها لم تكن!.

وإنك لتجد أوسطهم طريقة، يريد أن ينفي عن الإسلام، صفة الدولة الدينية، ويفرق تفريقاً مبكياً، بين الدولة الإسلامية، والدولة الدينية، وهو بذلك يحمِّل الأديان السماوية، ودون أن يدري، أوزار كنيسة ضالة، واستبداد بعض الطغاة الذين استغلوا اسم الدين، ثم يدين المفاهيم

الدينية عموماً، وكأنها كانت مصدر الشر والفساد أينما وجدت، من خلال إنكاره للصفة الدينية، في الدولة الإسلامية، ثم يشكك في ربانية الأساس التشريعي لهذه الدولة، وفي قيام نظامها على أصول الوحي الإلهي.

أو يحاول أن يجعل شعار (الشعب مصدر السلطات) شعاراً متمشياً مع الإسلام، ويصوره تصويراً موافقاً لأصوله وعقائده، رغم وضوح معالم الفلسفة الجاحدة للأديان، التي صاغت كلماته، والتي تظهر بكل وضوح، من خلال نظمه وتطبيقاته، والتي ليس فيها مكان للدين.

إن السلطة المخولة للأمة، في النظام الديني الإسلامي، هي سلطة تكليفية دينية، دون أدنى ريب، وليست سلطة ذاتية (مدنية) حرة.

فالمجتمع الإسلامي ككل، قائم على أساس ديني شامل، إذ هو مرتكز على الوحي الإلهي، الذي نظم أطره، ووجه حركته، وحدد منطلقاته وأهدافه ومساره، ثم ربط ذلك بالدين جزاء في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٩٢.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[1].

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[2].

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[3].

فهذا المجتمع، ديني في مفاهيمه وأصوله، ديني في حركته وتوجهه، ديني في استناد أخلاقه علىٰ معرفته للبعث والجزاء، ديني في مراقبته لعمله وتقواه، وهو مجتمع ديني كذلك، في روابطه، وولائه وبزائه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[4].

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[5].

---

(١) سورة الفتح: آية ٢٨.
(٢) سورة البقرة: آية ١٩٣.
(٣) سورة البيِّنة: آية ٥.
(٤) سورة المجادلة: آية ٢٢.
(٥) سورة التوبة: آية ٢٩.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [1].

فالدين في حياة المجتمع المسلم، نظام ورابطة وموجه، وسلطة هذا المجتمع، سلطة مخولة من الله تعالى، أساسها التكليف الإلهي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾.

فهي وجه من وجوه العبادة، وهي مرتبطة بالحساب والجزاء في كل أحوالها، ولا تنفك عن أغراض المنهج الديني، فالأمة التي تضع سلطة الحكم والتنفيذ، بين يدي من ترىٰ فيه القوة والأمانة، تفعل ذلك بموجب تكليف ديني إلهي، تتعبد الله وتدين له به، ولا تملك مؤاخذة ولي الأمر، إلا من منطلق ديني شرعي، وإلا كانت خارجة عن دين الله، عاصية لأمره، وإذا اختلفت الأمة مع ولي أو ولاة الأمر، فدين الله هو الحكم، وهو الفاصل في هذا النزاع، وهو المرجع الذي يتوجب الرجوع إلى حكمه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [2].

---

(١) سورة التوبة: آية ١١. (٢) سورة النساء: آية ٥٩.

وكما كانت طاعة أولى الأمر ديناً، وخلع هذه الطاعة معصية من أكبر المعاصي، فإن قضى النزاع بين الأمة، وبين ولاة أمرها، دين تتقرب به إلى الله.

وأخيراً: فلو كان اتجاه الريح معاكساً للمفاهيم الديموقراطية، ولو كانت سوقها بائرة كاسدة، لما وجدت من يكتب، أو يخطب، دفاعاً عن أصولها، وكيف لا وسوءتها، بادية غير مستترة؟ وأدنى تأمل لحقيقة الإسلام، يظهر مجافاتها له، بل ومحاربتها لعقيدته ومنهجه!.

ولو لم يكن لأرباب الفكر الصليبي غرض أو أرب في الحملة على المفاهيم الدينية، وعلى الشعارات الدينية، لما وجدت عاقلاً يفكر في التبرؤ من الدولة الدينية، أو السلطة الدينية، أو الحرب الدينية، فضلاً عن التفريق بين الدولة الإسلامية، والدولة الدينية!.

ومن أراد شاهداً تاريخياً على هذه الحقيقة، فليرجع إلى كتابات بعض (الإسلاميين)، خلال حكم عبدالناصر، إذ كانت سوق الشيوعية ـ أو الاشتراكية ـ العربية رائجة، وراياتها منصوبة، وليرىٰ كم من الكتب التي كتبت وقتها، عن إسلامية الإشتراكية، أو اشتراكية الإسلام!!. وكم من الحقائق التي أهدرت، والمسلّمات التي طمست، خطباً لود (رواد الإشتراكية)

ورعاعها، وسعياً وراء (المصلحة الراجحة)، وكم من الشتائم التي كيلت آنئذ، لمن كانوا يوصفون بالجمود، ويوسمون بمحاربة التطور!.

سؤال أخير، أود أن يفكر فيه دعاة أسلمة الديموقراطية، أو دمقرة[1] الإسلام:

لو أن مشركي مكة قبل إسلامهم، أو غيرهم من عبدة الأوثان، لو أنهم قالوا ـ وأقول: لو ـ: نحن نقبل بالإسلام، ونرضى بالعبادات، من صلاة وصوم وغير ذلك، ونخضع لكل ما يأمرنا الله به، ولكن على أن ترضى آلهتنا بذلك، أو تأذن به، وبتعبير العصر، أن تكون سلطة الله، مستمدة من سلطة الأوثان، فما رأيكم في قيمة هذه العبادة؟ وما وزنها في ميزان الإسلام؟.

أظن أن الإجابة واضحة، فلا نزاع في بطلان هذه العبادة وفسادها.

وبعد ذلك، أود أن أسأل الأخوة الذين انحرفوا عن جادة الصواب، ولم يفقدوا الإخلاص في مسألتنا: ما هو الفرق، بين الرضى بالإسلام، تحت مظلة سلطة الأصنام؟ وهو شرك جلي، وبين إقرار العبادات، وبعض ـ أو كل ـ التشريعات

(١) إذا صح التعبير.

الإسلامية، تحت مظلة سلطة الأمة، وفي ظل سيادتها؟ من كان عنده جواب يرضي الله، فلا يبخل به علينا وعلى الناس!.

هذا مثال واحد، لما يمكن أن يقع فيه المسلمون، إذا جهلوا المعنى الصحيح لشهادة التوحيد، وجهلوا حقيقة الأفكار والدعوات التي يواجهونها في واقعهم، وجهلوا حكمها في ميزان التوحيد.

وأما الوقفة الثانية، فمع جانب من مفهوم شهادة أن محمداً رسول الله:

كل المسلمين يقولون أن محمداً رسول الله، وكل المسلمين يتفنون بهذه الشهادة الحقة، بمناسبة وبغير مناسبة، وأرباب الطرق الصوفية، يفيضون في قصائدهم وأغانيهم بمدح رسول الله ﷺ، ولكن كم هم الذين يفهمون هذه الشهادة حقاً، وكم الذين يوفونها حقها، في كلامهم وفعلهم وفهمهم ودعوتهم، بل في عقيدتهم؟ ذلك ما نود إيضاح طرف منه فيما يلي:

إن اختيار الرسول، رمز الثقة والأمانة عند العقلاء من الناس، وكلما كانت الرسالة ذات خطر وشأن، كلما بالغ الناس في تحري القوي الأمين لرسالاتهم، ومحمد ﷺ هو رسول الله، ولله المثل الأعلى، في علمه وحكمته وأفعاله، وكفى بذلك

توثيقاً، وكفى بحكمة رب العالمين تزكية لنبينا ﷺ، إذ اختاره الله لحمل رسالته، وتبليغ دينه.

إن رسالة الإسلام، أخطر وأعظم وأشرف رسالة عرفتها البشرية، نظراً لمرسلها، وشرفها بين رسالات السماء، وإلى عظيم أثرها في الناس، ومحمد ﷺ رسول، ولكن ليس ككل رسول، إذ هو مؤيد بالحق في كل أموره، فقوله الحق، لأنه لا يقول إلا حقاً، بشهادة الحق سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1].

وفعله الحق، بشهادة الحق أيضاً: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[2].

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[3].

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[4].

وهذه معان لا يماري فيها مؤمن بالله ورسوله وكتابه، وهي تقتضي التسليم بكل ما جاء به رسول الله ﷺ، والاستسلام له، وتقتضي كذلك أن نجعل فعل رسول الله ﷺ هو الأسوة الواجبة، والسنة الماضية، القاضية على كل ما سواها، من

(١) سورة النجم: آية ٣ ـ ٤. (٢) سورة النجم: آية ٢.
(٣) سورة الحشر: آية ٧. (٤) سورة الأحزاب: آية ٢١.

أقوال الناس وأفعالهم، وأن نتخذ بيانه، الأصل الذي يرجع إليه الناس، وتحاكم إليه الأقوال كلها.

بذلك يتم تحكيم رسول الله ﷺ، وبذلك تصبح المناهج كلها، مستقاة من منهجه، والأحكام (ملتمسةً) من بحره[1]، وتكون العقائد موافقة لعقيدته، والحركات والدعوات تبع لدعوته.

وهذا الكلام ـ على عمومه ـ مقبول من كل المسلمين، بشتى طوائفهم، وعلى اختلاف فرقهم، وتضادِّ مناهجهم، فأين واقع المسلمين من هذه المسألة، وإلى أي حد تتطابق مناهجهم، مع منهج السنة النبوية المعصومة؟.

لا شك في وجود طائفة من الأمة، مستمسكة بالحق، الذي هو منهج السنة النبوية، ما كان عليه رسول الله ﷺ، من عقيدة وأصول وأحكام. وليس من غرضي أن أبحث في تحديد هذه الطائفة، أو الدخول في معركة حول حق الانتساب، فالأمر أعظم من مجرد التحلي بلقب ما، ومشكلات المسلمين لن تحل إلا بالعلم الصحيح، والنية الصادقة، والعمل القويم، والصبر والمصابرة، ومنهج السنة والجماعة، أو الفرقة الناجية،

---

(١) كما قال أحدهم:

وكلهم من رسول الله ملتمسٌ عرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

ليس حكراً على فئة، أو على أفراد، فهذا المنهج هو عقيدة وأصول وضوابط، وسبيلٌ في العلم والعمل، وكل من رضي بسنة رسول الله ﷺ سبيلاً، وبما كان عليه وأصحابه، والتزم هذا السبيل في نفسه وفي دعوته، فهو من أسعد الناس بالانضواء تحت هذه الراية المباركة.

والمتأمل في أحوال أكثر المسلمين، يجد أن القول يخالف العمل، وأن الدعوى في اتباع السنة، يعارضها الحال، وهذه بعض الأمثلة:

المثال الأول:

إن طائفة من المسلمين، استبدلت تقليد العلماء، باتباع سنة رسول الله ﷺ، وأوجبت أو أجازت، تقليد أحد ـ أو بعض ـ الأئمة[1]، وزاد بعضهم في الغلو، فزعم أن الخروج عن أقوال الأئمة الأربعة، منكر يجب تغييره، والأخذ على يد فاعله، واشتط آخر بعده، فقال أن من خرج على أقوالهم، فقد كاد أن يخلع ربقة الإسلام من عنقه، وقبل ذلك جاء أحد (السابقين) بما لم ولن يأتي به الأوائل ولا الأواخر، فزعم أن الأخذ بغير أقوال الأربعة، غير جائز، ولو وافق (ظاهر) القرآن

(١) انظر قول صاحب الجوهرة: وواجب تقليد حبر منهم.

والسنة وفعل الصحابة، لأن الأخذ (بظاهر) القرآن ـ على زعمه ـ أصل من أصول الكفر!![1].

ولن أزعم أن كل المقلدين، على هذه الشاكلة من الغلو والانحراف، فالجهل دركات، كما أن العلم درجات، وأحسن المقلدين مقالة، من يجعل كلام الإمام أصلاً، لا تجوز مخالفته، إلا بعد البحث والتمحيص والتفتيش، وكأن الله ـ سبحانه ـ جعل كلام الإمام أصلاً أول، وسنة رسول الله أصلاً ثانياً، لا نرجع إليها إلا بعد البحث في الأصل الأول، واستفراغ الوسع في استقرائه!!.

ولو جئت تسأل المقلد، عن حجته في مشروعية التقليد عموماً، فضلاً عن وجوبه، لما وجدت لديه من العلم نقيراً يرجع إليه، وكل ما يأتي به، يدل على وجوب التعلم والسؤال وطلب العلم.

والمقلد الذي يحرم الاجتهاد والاتباع، أو يحرم تقليد غير الأربعة من العلماء، هذا المقلد يجتهد في مسألة أصولية من أخطر المسائل، ألا وهي قضية التحريم الذي يراه ويذهب إليه، فيما يخالف قوله في التقليد، فكل مقلد يرى مشروعية التقليد، إلا أن منهم من يرى وجوبه، ومنهم من يرى حصره

(١) انظر حاشية (العلامة) الصاوي على الجلالين: ٣.

في عدد معين، ومنهم من يرى حصره في واحد. وهذا وربي هو عين الاجتهاد الذي يحرمونه، وهو فوق الاتباع الذي ينكرونه، فكيف يجتهد مقلدٌ في الأصول، وهو يحرم الاجتهاد في الفروع؟.

واسأل المقلد الشافعي، أو الحنفي، أو المالكي، أو الحنبلي؛ أين نص كلام مقلِّدك في جواز التقليد، أو وجوبه، وأين نص كلامه في تقليده هو بعينه، ونص كلامه؛ أو كلام الأئمة الأربعة، في حصر جواز التقليد فيه - أو فيهم -، ومنع تقليد الصحابة، أو غيرهم من أئمة الهدى؟؟.

فإذا لم يجد من كلام الأئمة الأربعة المفترى عليهم، ما يفي بغرضه، ولن يجد يقيناً، فكلامهم معروف في وجوب الرد إلى وحي الله، وفي حرمة معارضته بأقوال العلماء[1]، فهذه الفتوى في شأن التقليد، لم تأت من أحد الأئمة الذين يزعم[2] المقلدون تقليدهم، بداهة، والذين حصروا جواز التقليد في أقوالهم، وسموا مذاهبهم باسمهم، وإذا كان أهل الاجتهاد الذين يجوز تقليدهم، على زعم مقلديهم، لم يقولوا بهذا

(١) انظر مقدمة «صفة صلاه النبي» للأستاذ الألباني حفظه الله، فقد جمع طائفة طيبة من أقوال الأئمة الأربعة.

(٢) أقول يزعم، لأن المقلدين خالفوا أئمتهم في كثير من المسائل، ونسبوا إليهم ما لم يقولوا، بزعم أنه اجتهاد على أصولهم.

القـول، فكيف يجوز الأخـذ بأقـوال غـيرهم؟؟ وليس أهـلاً للاجتهاد! وكيف يجوز الأخذ بأقوال مقلدين؟؟.

وأهم من الإطالة في مناقشة هذه الفرية المحدثة، أن ننظر في الأثـر الذي أحـدثتـه في مفـاهيم المسلمـين، وفي علمهم وعملهم.

إن الله تعالى أرسل رسوله، وأمرنا بتصديقه واتباعه، فجاء بعض مقلدي المذاهب، وجعل الكتاب والسنة، آخر ما يرجع إليه المسلم، بعد أن حل التقليد الأعمى بين المسلمين، فمن زعم اليوم أن الله ـ سبحانه ـ أمر بتقليد هذه المذاهب، فكأنما زعم أن الله أرسل لنا خمسة من الرسل، آخرهم ترتيباً ـ عياذاً بالله ـ في وجوب الاحتكام إليه، هو محمد ﷺ. ولا أعتقد أن مسلماً يرضى بهذا الفهم لنفسه، أو لأخيه.

ومن زعم أن طـاعة الأئمـة وتقليدهم، من طـاعة أولي الأمر، فقد قدم طاعة أولى الأمر، على طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ، والحال أن طاعـة أولي الأمر، هي طـاعة تبعيـة متأخرة: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، وهي طاعة في غير معصية لله، ولا معصية لرسوله، وأن طاعة العلماء، وهم من أولي الأمـر، تجب على الجـاهل، في تلقي الحلال والحرام، وفي معرفة الأحكام، فآحاد العلماء، من غير الأربعة رحمهم الله، هم من أولي الأمر بعلمهم، فلا يدخـل

أحدهم في عموم الخطاب بحالٍ، ولا يدخل فيه الجاهل[1] الذي عرف الحكم بدليله، إذا أمره العالم بما يخالف الدليل الذي وصله وفهمه.

فالتقليد لمن احتاج إلى علم شيء، ولم يؤت سعة في الوقت، أو الفهم، أو حال بينه وبين العلم حائل، ضرورة لا ينكرها عاقل، بل هي مما لا يكاد ينجو منه أحد. وهي لا تخالف أصل وجوب اتباع السنة على كل مسلم.

لقد أمر الله بالرد إلى كتابه، وإلى سنة نبيه ﷺ، لفض الخلاف الذي يقع بين المسلمين: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾. إذ الحكم لله وحده، وما دور أولي الأمر، إلا الدلالة على حكمه وبيانه وإقامته، فإذا انحرف فهم بعضهم أو عمله عنه، علماء أو حكام أو أمراء، وجب الرد إلى الأصل، والاحتكام إليه. ويأتي بعض المقلدين (المعتدلين) ليعكس القضية، ويجعل المعلم هو الأصل، .وإلى رأيه يرد قول الكتاب: «فليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمثة، نالت مطراً غزيراً، فتشربت جميع أجزائها، وأذعنت بالكلية لقبوله، ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فليقلده، وليدع رأيه، فإن

(١) الذي له بعض العلم، ولكن جهله فيما يعلم من الأحكام، أكثر مما يعلم، ولو لم يتبعض العلم لما تعلم إلا نبي.

خطأ مرشده، أنفع له من صوابه في نفسه، إذ التجربة تطلق على دقائق يستغرب سماعها، مع أنه يعظم نفعها، وقد نبَّه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام، حيث قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ ثم شرط عليه السكوت والتسليم[1] فقال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ ثم لم يصبر، ولم يزل في مراودته، إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما، وبالجملة: كل متعلم استبقىٰ لنفسه رأياً واختياراً، دون اختيار المعلم، فاحكم عليه[2] بالإخفاق والخسران»[3]. ثم يتابع بعد ذلك:

«فإن قلت: فقد قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالسؤال مأمور به، فاعلم أنه كذلك، ولكن

---

(١) وأين هو المعلم المعصوم في فعله، كما كان شأن الخضر في ذاك، إذ قال لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾.

(٢) هذا القول الباطل، مبني على قياس باطل، هو قياس «المعلم» على المعصوم الذي شهد له القرآن بالعصمة، وهو من آثار التصوف «المعتدل»!.

(٣) الأستاذ سعيد حوى، رحمه الله، من كتابه «المستخلص»: ١٧ ـ ١٨.

فيما يأذن المعلم بالسؤال عنه، فإن السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم»[1].

المثال الثاني:

ويتضح في الخلاف الوهمي، الذي نصبته بعض الفرق الإسلامية، بين العقل، وبين ما أسموه نقلاً، ويقصدون به وحي الله إلى نبيه، ويشمل كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، متبعة في ذلك، خطىٰ المنطق اليوناني الأرسطي، ومقتفية أثره، حذو النعل بالنعل، حتى رفعت هذا المنطق فوق كتاب الله، وجعلته حكماً عليه وميزاناً، فما قضىٰ بصحته من كلام الله، فهو عندهم حق، وما حكم ببطلانه فهو الباطل، وسرت هذه الفتنة بين المسلمين، حتى طغت على عقول كثير من علمائهم، وأفسدت موازينهم وعقائدهم، وشب عليها الصغير، وشاب عليها الكبير، فإذا بعامة المسلمين، لا يرون الحق في غيرها، ولا يعرفون سواها.

وشأن البيان الثاني من سنة رسول الله ﷺ، بعد الأصل الأول: كتاب الله، شرفاً ومكانة وتقديساً، ليس أحسن حالاً، عند هؤلاء، فمرده ـ عندهم ـ إلى العقل، يرى فيه رأيه، ويحكم بحكمه.

---

(١) المستخلص: ١٨.

وتتجلى هذه الفتنة على اشدها، عند الحديث على نصوص الأسماء والصفات.

قال أحدهم: «وردت في القرآن الكريم آيات، وفي السنة المطهرة أحاديث، **توهم بظاهرها مشابهة الحق تعالى للخلق في بعض صفاتهم**، كالوجه، والعين، واليد، والاستواء على العرش، ونسبة الجهة، والنزول، والفرح، والضحك»[1].

وفي حديثه عن انقسام الناس في تلك الآيات والأحاديث، يقول:

«وقد انقسم الناس في ذلك على أربع فرق:

١ ـ المجسمة: وهي فرقة أخذت بظواهر هذه الآيات والأحاديث كما هي، فنسبت إلى الله تعالى وجهاً كوجوه الخلق، ويداً كأيديهم، وضحكاً كضحكهم..، وهؤلاء ليسوا من الإسلام في شيء، وليس لقولهم نصيب من الصحة»[2].

وأما بقية الفرق، فهي على قول الشيخ: المعطلة التي عطلت معاني هذه الألفاظ على أي وجه، فهم يعطلون بذلك صفات الله تبارك وتعالى، ويتظاهرون بتقديسه. وهذا القول،

---

(١) أحمد عزالدين البيانوني رحمه الله، الجزء الأول من سلسلة العقائد، كتاب الإيمان بالله: ص ٦٦.

(٢) كتاب الإيمان للبيانوني: ٦٧.

ومعه قول (المجسمة): «رأيان باطلان، لا حظ لهما في النظر، وبقي أمامنا رأيان، هما محل أنظار العلماء في العقائد: وهما رأي السلف ورأي الخلف»[1].

وبالتأمل في كلام الشيخ رحمه الله، تتبين لنا الحقائق التالية:

١ ــ أنه أسند وهم التشبيه ـ وهو كفر باتفاق الخلف والسلف ـ إلى ظاهر القرآن والسنة، فجعل ظاهر النصوص موهماً لعقيدة كفرية، بدل أن يسند الوهم إلى الفهم القاصر، أو التفسير الزائغ. وهذا الصنيع مخالف لما توجبه ضرورة الإيمان بالكتاب والسنة، وبديهته، وللعصمة التي لا يمكن أن تخلو منها عقيدة المسلم، المؤمن بكتاب الله وسنة رسوله. ويفسد الثقة الواجبة إيماناً بنصوص الكتاب والسنة، ويجعلها عرضة للشكوك والأوهام، ويجعل استفادة اليقين منها ممتنعة[2]. والرجوع إليها متعذرة، دون حاكم آخر يحكم عليها، وذلك ما فعله جمهور الخلف، على اختلاف أقوالهم، من تحكيم المنطق اليوناني باسم العقل.

٢ ــ أنه خلط بين المجسمة الهشامية[3]، وهم فرقة من

(١) الإيمان للبيانوني: ٦٨.
(٢) وهذا هو قول جمهور الأشاعرة.
(٣) فصّل الإمام أبي الحسن الأشعري أقوالهم، انظر مقالات الإسلاميين: ٣١ ـ ٣٥ كما صرّح به الفخر الرازي في كتبه.

الرافضة، وبين أهل السنة، الذين أخذوا بظواهر هذه النصوص كما هي، فلم يعطلوها أو يفوضوها،و لم يشبهوا معانيها أو يكيفوها، وهذا الظاهر الذي يليق بالله سبحانه، هو الصدق الذي جاء به رسول الله ﷺ، وصدّق به إيماناً، هو وأصحابه رضوان الله عليهم، وهو الذي حكم الشيخ عليه أنه يوهم التشبيه، ولو تحرر من تقليده لعلم أن هذا الظاهر، لا يتنافى مع تنزيه الله سبحانه، بل هو التنزيه عينه، وأي تنزيه أعظم من تنزيه كلام الله، وكلام رسوله عن أوهام التشبيه، وإثبات العصمة الحقة لوحي الله إلى نبيه. وللشيخ رحمه الله في كتابه، كلام نفيس يرد به على المعتزلة، يحسن تأمله.

قال رحمه الله:

«والذي يجب أن يتفطن له المؤمنون، أن المعنى الذي يقصد باللفظ في صفات الله عز وجل، يختلف اختلافاً كلياً عن المعنى الذي يقصد بهذا اللفظ في صفات المخلوقين:

فأنت تقول: الله عالم، والعلم صفة لله تعالى. وتقول: فلان من الناس عالم، والعلم صفة لفلان من الناس. فهل ما يقصد بلفظة العلم في التركيبين واحد؟ حاشا أن يكون كذلك، وإنما علم الله تبارك وتعالى، علم لا يتناهى كماله، ولا يعدُّ علم المخلوقين شيئاً إلى جانب علم الله تبارك وتعالى. وكذلك الحياة، وكذلك السمع، وكذلك البصر، وكذلك الكلام، وكذلك القدرة والإرادة.

فهذه كلها مدلولات الألفاظ فيها، تختلف عن مدلولاتها في حق الخلق، من حيث الكمال والكيفية، اختلافاً كلياً، لأنه عز وجل لا يشبه أحداً من خلقه»[1].

هذا الكلام بعينه، هو ما يقوله أهل السنة، الذين يؤمنون بالكتاب والسنة، حقيقة الإيمان فكما أن معنى العلم والإرادة، وغيرها من الصفات التي يثبتها الأشاعرة، يختلف باختلاف إضافته وتركيبه في السياق، فكذلك معنى اليد والوجه والعين والاستواء، وسائر الصفات التي ورد بها النص، والتي جعل الأشاعرة نصوصها موهمة للتشبيه، وكفَّروا معتقدها، وقلدهم الشيخ فقال: «وهؤلاء ليسوا من الإسلام في شيء».

فخلخلوا بذلك أساس الوحدة العلمية للمسلمين، ولو تحرر كثير من الناس من تقليدهم، لما وجدوا في نصوص القرآن، ما يوهم اختلافاً، ولا عوجاً ولا تشبيهاً، وما عدلوا عن سبيل الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان، وقد آمنوا بهذا الكتاب، وبيانه الأول المعصوم، سنة رسول الله ﷺ، وهم أدرى الناس بسلامة وحي الله ظاهره وباطنه من كل ريب أو ظن، وأسعد الناس ببركات هذا الوحي، من وحدة وائتلاف وقوة، إذ آمنوا به وصدقوه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن

---

(١) كتاب الإيمان للبيانوني: ٦٢ - ٦٣.

كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1].

والأمر الذي يجب أن نتنبه له جميعاً، أن الإيمان بالكتاب والسنة، وتصديقها علماً وقولاً وعملاً، هو سبيل الهدى، وهو منهاج العلم ونبراسه، هدياً صافياً من الشوائب، لا ريب فيه ولا شك، وعلماً صريحاً خالصاً لا نقص فيه ولا عيب بحال:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[2].

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[3].

فالانحراف الذي وقعت به الفرق الضالة، لم يأت من اتباعها لهدي الوحي كما هو، وكما قال الشيخ البيانوني، وإنما جاء من أخذها لبعض الكتاب، وترك بعضه الآخر، ومن ثم: ضرب الكتاب بعضه ببعض، واتباع سبيل الشقاق والفرقة:

﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾[4].

ومن ذلك الخزي، أنك تجد تلك الفرق كلها، مخالفة

---

(١) سورة الزمر: آية ٣٢ - ٣٣. (٢) سورة الإسراء: آية ٩.

(٣) سورة طه: آية ١٢٣. (٤) سورة البقرة: آية ٨٥.

للكتاب، تضرب بعضه ببعض، فلا يمكنها أن تثبت أقوالها، إلا بتعطيل طائفة من نصوص الوحي، تحريفاً أو تكذيباً، فإذا اختلفت في الوحي، الذي هو أساس نظامها ووحدتها، فلن تجتمع على شيء بعده أبداً، وتلك سنة الله في خلقه كلهم، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، وهي تسري على كل من خالف أمر الله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[1].

وفرق التأويل والتعطيل، إنما أتيت من هذ الفتنة، إذ أخذت نصوص التنزيه، وتركت نصوص الإثبات، فأخذت قول الله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾. وتركت شطر الآية: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ على تفاوت بينها في التعطيل، فأدى التنزيه المطلق دون إثبات، إلى جحود الصفات كلها، كما هو شأن المعتزلة، ووقع الأشاعرة في التناقض، فأثبتوا بعض الصفات، ونفوا غيرها، تحكماً بغير دليل، سوى توهم التشبيه، وكلامهم في الرد على المعتزلة، يتضمن إثبات الصفات كلها، لولا

(١) سورة المائدة: آية ١٤.

التعصب واللجاج، مثلما يتضمن الرد على دعواهم في الصفات التي تأولوها.

ولقد أخذ أهل السنة، من أصحاب رسول الله ﷺ والذين اتبعوهم، بالكتاب كله، فأثبتوا كل الذي أثبته من صفات، ونفوا ما نفاه من مشابهة بين الله تعالى، وبين خلقه جميعاً، اتباعاً لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

٣ ـ ذهب الشيخ، كغيره من الخلف، إلى أن قول السلف في هذه النصوص: «أن يؤمنوا بها كما وردت، ويتركوا بيان المقصود منها لله تبارك وتعالى، فهم يثبتون اليد والعين وغيرها، بمعان لا ندركها، وهذا القول، من السكوت وتفويض علم هذه المعاني إلى الله، أسْلم وأولى بالاتباع، وقد اتفق السلف والخلف، على أن المراد، غير الظاهر المتعارف بين الخلق»(١).

والأمر الذي يحار أولوا الألباب في فهمه:

كيف يمكن أن يؤمن السلف بهذه النصوص كما وردت، ثم يتركون بيان المقصود منها لله تعالى، ويفوضون علم معانيها إليه، وهذه النصوص هي نفسها، التي قال الشيخ بشأنها أنها:

---

(١) الإيمان للبيانوني: ٦٨ ـ ٧٠.

«توهم بظاهرها مشابهة الحق تعالى للخلق في بعض صفاتهم».

فإذا كان السلف ـ على رأي الشيخ ـ، تركوا بيان المقصود منها لله تعالى، وفوضوا معانيها إليه، وظاهرها ـ أيضاً كما يرى الشيخ ـ، موهم للتشبيه[1]، عياذاً بالله، فما الذي بقي منها ليؤمن به السلف إذاً؟؟. وهل في النصوص شيء، سوى الظاهر الذي اتفق السلف والخلف ـ حسب تصور الأشاعرة ـ على إبطاله، أو المعنى الذي ترك السلف الخوض فيه؛ على تعبير المؤلف؟؟.

إن الحقيقة التي تبرز بوضوح، من خلال كلام الشيخ البيانوني، كما هو شأن معظم كتابات الأشاعرة في العقيدة: أن آثار الفلسفة اليونانية، التي تسربت إلى مذاهب الخلف، من خلال المنطق، قد ضربت بين عقل المسلم، وبين هدي النبوة السمح، حجاباً غليظاً من الجهالة والتعقيد، والتعمية والتشكيك، وجعلته في بحر لجي من ظلماتٍ بعضها فوق بعض، وحولت عقيدته إلى أحاجٍ وألغاز، أبعد ما يمكن عن هدي الله الذي أنزله لعباده، وأقل من أن تقوِّم عوجاً، أو تقيم خلقاً، أو تجمع أمة التوحيد على منهج التوحيد.

وأما عقيدة السلف، أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم،

---

(١) ترى هل فات السلف كلهم، إدراك ما في ظواهر هذه النصوص من تشبيه؟ أم سكتوا عن هذا التشبيه وهو ظاهر لديهم؟؟.

وأعلام الإسلام وأمناؤه، كابن المبارك، والإمام أحمد، وأبي الحسن الأشعري، ومالك بن أنس، والإمام الشافعي، والسفيانين: الثوري وابن عيينة، وابن خزيمة، والبخاري، وعثمان بن سعيد الدارمي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلامذته وغيرهم، ممن لا يحصيهم عدٌّ، عقيدة أهل سنة رسول الله، وجماعته المهتدين بهديه، فهي ظاهرة كالشمس، لا خفاء بها ولا عوج، الإيمان بما جاء عن الله، وما صح من حديث رسول الله ﷺ، على الظاهر الصحيح، الذي يفهمه العالم بتفسير كتاب الله، لم يؤولوا ولم يعطلوا ولم يفوضوا، ولم يشبهوا أو يمثلوا، ولم يكيفوا، عدول هذا الأمة، ينفون عن كتاب الله تعالى تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين.

إن الإيمان بشهادة أن محمداً رسول الله، ركن للتوحيد ركين، لا يقبل الله من عامل عملاً بدونه، وإن هذا الإيمان يقتضي منا أن نحكم سنة رسول الله ﷺ في كل شأن، جلَّ أو قل، وأن نرضى بهديه، دون حرج ولا ريب ولا تردد، والإخلال بهذا المبدأ فتنة، ونذير شتات وتمزق، ونذير عذاب من الله أليم: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة النور: آية ٦٣.

وأي فتنة أعظم من تفرق المسلمين اليوم، وأي تدابر أشد من تدابرهم.

وإن من أشد ما يتعارض مع حقيقة إيماننا برسالة محمد ﷺ، أن نضرب الأمثال لما جاء به من عند الله، وأن نحكم فيه أوهامنا، فكيف إذا كان في المسلمين، من يزعم أن في الكتاب الذي نزل عليه تبياناً وفرقاناً وتفصيلاً، وفي السنة التي تفسر الكتاب وتبين مجمله ومتشابهه: آيات وأحاديث تحمل أوهام التشبيه والكفر، فما هو الملاذ الذي يلتمس منه المسلمون الهدى، بعد الكتاب والسنة، إذا صدقنا أن آيات الكتاب، وأحاديث السنة، قاصرة عن بيان الحق، والتعريف به: ﴿ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾(١).

وإن من المخالف لبديهة الإيمان بالكتاب والسنة، تحقيقاً لمفهوم شهادة التوحيد ومفتاحه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أن تذهب طائفة من المسلمين، دع أمر علمائهم، إلى تحريف نصوص الكتاب والسنة عن مواضعها، والقطع أن معاني هذه النصوص الظاهرة منها، باطلة، أو تعطيل معانيها.

وكيف لا يكون أمرهم كذلك، وهم يرمون من آمن بهذه

---

(١) سورة الجاثية: آية ٦.

النصوص «على ظاهرها كما هي» بأنه مجسم، أو مشبه، وليس له أو لقوله في الإسلام نصيب؟.

وكيف لا يكون أمرهم كذلك، وهم يجعلون التأويل الباطل، أو التفويض المحدَث، بديلاً لهذه الآيات والأحاديث، في عقائدهم المسطورة؟.

وليس أهون الفريقين شراً، من جاء يزعم أن آيات وأحاديث الصفات، لم تكن مفهومة عند السلف، إذ يلزم من ذلك: أن يكون رسول الله ﷺ، يتلو تلك الآيات، ويتكلم بتلك الأحاديث، دون أن يفقه منها معنى! أو يفقه أصحابه منها شيئاً.

إذ لو فهم منها شيئاً، لوجب عليه تبليغه، ولو بلّغه أصحابه، لما وسعهم السكوت عنه، أو أمكن اجتماعهم على مخالفته، والسكوت عنه.

فإذا جاز تحريف آي القرآن، وإبطال معاني النصوص النبوية المفسرة له، أو الإعراض عن هديها، وأمكن اعتبار نصوص الوحي، في أعظم ما نزل لأجل بيانه: مصدراً لأوهام التشبيه وضلالاته، كما هو قول الخلف، من المؤولين والمفوضين. فقد تم بذلك تعطيل دور الوحي الرباني، كمصدر وحيد لحقائق الإسلام ومفاهيمه، وضرب دوره باعتباره جامعة علمية لتصورات المسلمين ومفاهيمهم، ونقض وظيفته

التوحيدية، المضادة للتعدد والإشراك في التلقي، وتم كذلك مخالفة ربانية المصدر الإسلامي، وإفساد معنى الشهادة بشكل أكيد.

ثالثاً: إقامة الصلاة:

إذا كانت شهادة التوحيد، وهي الركن الأول من أركان الإسلام، تمثل القاعدة العلمية، التي تجمع أصول الإسلام، وتتضمن مبادئه، فبقية الأركان التي جاءت في الحديث، هي الأسس العملية، التي تجسد بالإضافة لبقية أعمال الإسلام، حقيقة التوحيد العملية، وترسخ أخلاقه، وتبني أبعاد الشخصية الإسلامية في حياة الإنسان، فهي بذلك الامتداد السلوكي لمفاهيم التوحيد، والنتيجة المترتبة عليها، وأول هذه الأركان بعد الشهادة، وأعظمها أثراً: إقامة الصلاة.

والصلاة عبادة مخصوصة، ذات شروط وأركان، وفرائض وسنن، تجب على المسلم في اليوم خمس مرات، مفتاحها طهور البدن والثوب والمكان، والطهارة من الأحداث، وتحريمها التكبير، والخشوع وحضور القلب فيها فريضة: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾[1].

وذكر الله فيها، كالروح في الجسد: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ

(١) سورة البقرة: آية ٢٣٨.

ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[1].

فهي تبتدىء بطهارة الجسد، وتنتهي بطهارة الروح والنفس، فمن أداها بحقها، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يؤدها، لم يكن له عند الله عهد، كما قال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن، لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن، فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة»[2].

والصلاة أول ما يفعله الإنسان، عند استيقاظه مع الفجر، وآخر ما يصنعه قبيل نومه آخر اليوم، وترافقه طيلة يومه، في الظهر والعصر والمغرب، فهي معه بذكرها، وركوعها وسجودها، تشد حواسه بأعمالها وحركاتها، وتحيي نفسه بذكرها وتبتلها وخضوعها، في استقبال يومه، كما في انتهائه، وخلال سعيه وكدِّه، كما في وقت راحته وسمره، فهي تصبغ أوقاته وأحواله كلها وتصحبه بمعاني العبودية وأعمالها، وتربي فيه

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٤٥.

(٢) صحيح الجامع الصغير رقم (٣٢٤٣) من رواية الإمام مالك، وأحمد، وأبي داوود، وغيرهم وصححه.

خضـوعه وانقيـاده، في عسره ويسره، ومنشطه ومكـرهه، لا يحول بينه وبينها، مرض ولا سفر، ولا كبر ولا عجز، ولا ليـل ولا نهار، فهي معه في كل ذلك، ما وسع جهده وقدرته. فهي شعار الإسلام والإستسـلام، وعنوان الخضـوع والالتزام، لا يحفظها إلا مؤمن، فمن ضيعها، كان لما سواها أضيع. قال رسـول الله ﷺ: «إن بين الـرجل وبـين الشرك والكفر تـرك الصلاة»[1].

وعن عبـدالله بن مسعود، قـال: (قلت يا نبي الله، أي الأعمال أقرب إلى الجنة؟ قال: «الصلاة على مواقيتها» قلت: ومـاذا يا نبي الله؟ قـال: «بـر الوالـدين». قلت: ومـاذا يـا نبي الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله») وفي رواية عنه: (سألت رسول الله ﷺ؛ أيُّ الأعمال أحب إلى الله)؟[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتـل الناس حتى يشهـدوا أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا، عصمـوا مني دمـاءهم وأمـوالهم، إلا بحقهـا، وحسـابهم على الله»)[3].

---

(١) رواه مسلم: ١/ ٨٨.
(٢) رواها مسلم: ١/ ٨٩ ـ ٩٠.
(٣) رواه مسلم: ١/ ٥٣.

والصلاة على ذلك، أبرز معالم الوحدة بين المسلمين، أو من أبرزها، إذ ترسخ في حياتهم، وحدة اللقاء في المكان والزمان، ووحدة في الشعور والغاية، ووحدة في الحركة والاتجاه.

فهي تجمع المسلمين في مسجد الحي، كل يوم خمس مرات، في أوقات الصلوات، وفي المسجد الجامع مرة كل أسبوع، وهذا الاجتماع لو أعطي حقه، من الحب المتبادل، والتعاون المفروض، وأعيد له دوره كما كان أول الأمر، رابطة حيوية للود والتعارف، والتكامل والترابط، لغيَّر الكثير من واقع المسلمين السيء، وأعاد لهم الكثير من وحدتهم الضائعة.

وهي تجمع المسلمين تحت ظلال العبودية، من خلال مسلكها وأخلاقها، في لحظات تفيء فيها القلوب إلى بارئها، وتتخفف من أوزارها وأثقالها، فتعجل بإزالة ما بينها من فوارق ورواسب، وفي إزالة الأبعاد، وتقريب الشقة، لتصل إلى غايتها المنشودة، من التآخي في الله، والاجتماع على عبوديته، ومن ثم: تفيض القلوب بالخير والعطاء، ويبدأ السباق نحو الغاية العظمى.

والصلاة كذلك، تضع مبادىء التناسق بين المسلمين، في حركتهم وتوجههم، إذ تجمعهم على قبلة واحدة، وتضبط حركتهم وفق مؤشر واحد، فكل المصلين يتبع إماماً في صلاته،

لا يتقدمه، ولا يتأخر عنه، ولا يخالفه، قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به، فلا تختلفوا عليه، فإذا كبر فكبروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا لك الحمد، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلى جالساً، فصلوا جلوساً أجمعون»[1].

«لا تبادروا الإمام، إذا كبر فكبروا، وإذا قال: ولا الضالين، فقولوا: آمين. وإذا ركع فاركعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد»[2].

وقد جاء الحديث النبوي، بالوعيد الشديد، لمن يسابق الإمام في صلاته: «أما يخشىٰ الذي يرفع رأسه قبل الإمام، أن يحول الله رأسه رأس حمار»؟[3].

فالصلاة إذا أحسنّا إقامتها، ركيزة من ركائز العبودية، وركن من أركان وحدة المسلمين، ووسيلة إعلامية وتربوية فاعلة فذة.

---

(١) رواه مسلم: ١/٣٠٩ـ٣١٠.
(٢) صحيح مسلم: ١/٣١٠.
(٣) مسلم: ١/٣٢٠.

رابعاً: إيتاء الزكاة:

الزكاة عبادة مالية، تجب في كل صنف من أصناف المال، إذا بلغ نصاباً، وحال عليه الحول، وتؤخذ من أموال الأغنياء، لترد في حاجات الفقراء.

ومن الزكاة ما لا يعتبر في وجوبه نصاب ولا حول، ولا يقدر بنسبة أو عدد، وإنما يرجع أمره، إلى وجود فقراء، ومساكين، أو أرامل وأيتام، لا مال لهم يقيم أصلابهم، أو يستر عوراتهم، أو يسد خاجاتهم، فيجب على من وجد فضلاً من مال، أن يعود به على من لا مال له، ما وجد الفقير أو المسكين.

ولأن المال من أبهى زينة للحياة، فإن تعلق القلوب به، تعلّق مكين، أنتج الشح والحرص، والحسد والقطيعة، وقطع الأرحام، وسفك الدماء.

وقد جاءت فريضة الزكاة، وهي أحد أركان الإسلام، لتضع عن الناس أوزار هذا الإفراط في حب المال، وتحررهم من قيود عبوديته: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

ولتجعل المال أداة بناء، بدل أن كان أداة تحكم وقهر: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[2].

ولتبني به أخلاقاً سامية، من التعاون والتكافل والتكامل والاحتساب: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[3].

وتسهم في بناء علاقات الأمة وتوثيقها، وصنع أهدافها القريبة والبعيدة: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾[4].

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ

---

(١) سورة التوبة: آية ١٠٣ ـ ١٠٤. (٢) سورة الحشر: آية ٧.
(٣) سورة الإنسان: آية ٨ ـ ١٠. (٤) سورة البلد: آية ١٧ ـ ١٨.

تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

---

(١) سورة الفتح: آية ٢٩.

خامساً: صوم رمضان:

الصيام هو الامتناع عن الطعام والشراب والجماع، منذ طلوع الفجر الصادق، وحتى مغيب الشمس، بنية عبادة الله وطاعته، في الفريضة والنافلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[2].

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾.

ويبتدىء شهر رمضان برؤية هلاله، أو انتهاء عدة شعبان ثلاثين يوماً، وينتهي رمضان برؤية هلال شوال، أو اكتمال عدة رمضان ثلاثين يوماً.

وتتأكد حرمة رذيلة الغيبة والنميمة، وأنواع المعاصي، في

---

(١) سورة البقرة: آية ١٨٣. (٢) سورة البقرة: آية ١٨٧.

وقت الصيام، رعاية لمعنى الصيام، وقياماً بواجبه التربوي، وجرياً مع ضعف نوازع الشر، نتيجة لضعف شهوات البدن وقت الصيام.

وفي الصيام، تتكامل جوانب العبودية لله، وتترسخ معاني الطاعة والتجرد لإرادته، إذ يلتزم المسلم خلال صومه، بالتخلي عن طعامه وشرابه الحلال، وعن نكاحه كذلك، وكل هذه من الطيبات المحبوبة، وبها قيام حياته وصحته، وبواسطتها يتهيأ للقيام بدوره، وأداء واجبه، وهذا التخلي الواجب على المسلم عن طيباته، لفترة محددة، يضعف خلالها جسمه إلى حين، ثم يجد عاقبة ذلك صحة واتزاناً، يتخفف بذلك المفرط من الناس، ويجد فرصة مواتية لأخذ زمام نفسه، وتهذيب شهواته، ما حلَّ منها وما حرُم، ويجدد القدرة على التخلص من ذميم العادات وقبيحها، والعودة إلى بداية المسير مرة أخرى، جهاداً للنفس ولوماً، وكفّاً وتوجيهاً، وتستعيد الإرادة قدرتها.

وفي ساعات الصيام والجوع، يفكر الغني بحسِّ الجائع، فيعرف من آلام الجوع، ومن آثاره البدنية والنفسية، ومن عواقبه الخلقية الهدامة، معرفة تجربة وألم، ما لا يمكن فهمه بغير الصيام.

فالصيام عبادة وتقرب إلى الله، وتربية للإرادة، وتزكية للأخلاق، وضبط لجماح النفس، وتصحيح للمسار، ومراجعة

عمليـة للحساب، وتـرسيخ للتكـافـل والتعـاون، واستكـمال للإعداد.

سادساً: حج البيت لمن استطاع:

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو عبادة جامعة لأنواع العبادات.

فهو عبادة شعائرية، بما فيه من ذكر وتلبية، وسعي وطواف ورمي.

وهو عبادة مالية، بما يوجبه من إنفاق وذبح.

وهو يشارك الصوم، في تربية الأخلاق، وتزكية الصبر، بما يتضمنه من سفر ومكابدة، وصبر عن الرفث والفسوق، والجدال بالباطل.

ويشارك الصلاة، في إرساء وتنمية معاني الوحدة والاجتماع.

ففي الحج يسعى المسلمون من كل قطر وبلد، على اختلاف ألوانهم وألسنتهم، ليجتمعوا عند الكعبة، التي كانوا يتجهون إليها في صلواتهم. ويجمعهم الحج بشعائره، في عبادة واحدة، وبقعة واحدة. ثم يكون بينهم من اللقاء والحوار، في أمور دينهم، وفي تبادل الآراء، وفي معرفة العادات والمظاهر المختلفة، ما لا يتوفر في مناسبة أخرى.

وفي كل ذلك إشارة وتمهيد، لما ينبغي أن يكون عليه المسلمون، من وحدة في المفاهيم، ووحدة في المنطلق والمنهج، ووحدة في العمل، وتجاوز لمظاهر الخلاف وأسبابه، وبذل كل نفيس، وتخطي كل عقبة تحول دون اللقاء الحقيقي، بعد أن التقى المسلمون في بقعة واحدة، لغرض واحد، وبمظهر واحد، يغطي كل مظاهر الاختلاف.

وبعد أن أخذ المسلمون عبرة، وشهدوا مثالاً حياً، اجتمعت فيه الأبدان، والتقت فيه المشاعر، يمكن أن ينطلقوا لتحقيق اللقاء الأسمىٰ، بتجاوز حظوظ النفس، وحواجز العصبية كلها، وتوطين النفس على تقديم هذه الغاية، مهما غلت التضحية، ومهما بعدت المسافات الحسية والمعنوية، تلبية لدعوة الله، وإعلاء لكلمة التوحيد، توحيداً للعقيدة والمنهج، وتوحيداً للهدف والغاية، وتوحيداً للجهود والمساعي.

وهكذا نجد في هذا الاستعراض لمعاني الإسلام وأركانه، ودور العبادة الصحيحة، في بناء العلم والعمل، والولاء والتوجه، في مجال الفرد والجماعة؛ أن وظيفة الإسلام في حياة الإنسان، عمل ذو شقين، فهو يضع أسس المفاهيم، ويضبط حركة الفكر، ضمن أصول التوحيد، ومصادر التوحيد، ومفاهيم التوحيد، ويضع أساس التكوين الفردي للأخلاق، لتكون امتداداً لمنهج التوحيد، وتجسيداً وترجمة يومية عملية

لمبادىء التوحيد، ولتصبح هذه الأخلاق، في إطار العبادات الشخصية، بذرة تتكون منها علاقات الأمة، وروابط الجماعة، ويتكون مسارها العام، وفق إطارها وأبعادها في الشق المكمِّل.

والحقيقة التي نخرج بها من هذا الفهم، أن أداء الشهادة، فهماً وإقراراً والتزاماً، وإقامة الصلاة، وافية تامة، بشروطها وأركانها وواجباتها، ظاهراً وباطناً، وإيتاء حق الزكاة لأهلها، ووضعها في مواضعها، وصيام رمضان، قياماً بواجبه المفروض، ورعاية لأبعاده المطلوبة، وفهم رسالة الحج وتحقيقها. كلها تكوِّن شرطاً لا يستغني عنه، في الإعداد لحركة إسلامية، وتربية إسلامية، وأخلاق وعلاقات إسلامية. وبالتالي فإن وجود الخلل، أو القصور والانحراف، في كيان الفرد المسلم، أو الجماعة المسلمة، يعني أن تلك الأسس لم تكتمل، عند ذاك الفرد، أو تلك الجماعة، وأن التفتيش عن الخلل، يجب أن يبدأ في أركان الإسلام، التي يحملها القوم، فهماً أو التزاماً، أو كليهما معاً، ذلك أن من الخلل، معالجة مظاهر الخلل، أو الوقوف عندها، دون البحث في الجذور والقواعد، وأن من أهم الضرورات المنهجية، أن ينتهي الفصل الذي يمارسه كثير من الدعاة، بين أصول المنهج الواحد، وقواعده المتكاملة، من أجل أن تستريح الدعوة المعاصرة، من آثار التعامل الجزئي والمفكك مع أصول الدين.

لقد وعى معظم الدعاة في عصرنا، شمولية الإسلام وتكامله، على صعيد المطالبة والدعوة والإعلام، واختفت تلك النظرة القاصرة، التي كانت تحصر معنى التدين، في العبادات الفردية، وفي بعض الجوانب والمظاهر الهزيلة، واستقر في الأفهام، أن الإسلام عقيدة وشريعة، ودين ودولة، وعبادة وحركة، وسياسة وتربية، وذكر وجهاد.

وإن مفاهيم الدعاة؛ ومثلها حركتهم وحياتهم اليومية، وأعمالهم ومشاريعهم الكبرى، أحوج إلى تأصيل أطرها، وتحقيق منهجيتها، وإلى ربط العقيدة بمصادر العقيدة، وبناء الأصول على نهج العقيدة، وتخطيط الدعوة وفقاً لمنهج الأصول، من خلال تكامل هذه الأصول وترابطها.

وبذلك تتحقق شمولية الإسلام، ومنهجية الإسلام، في حياة دعاته، وفي مناهجهم ودعوتهم، وتتهيأ الأداة الصالحة للدعوة الإسلامية، التي تمثل ربانية الإسلام، ولا تقف عند الانتساب إلى مفاهيم المسلمين، وإلى جهودالمسلمين.

الفصل الثاني

الإيمان

أولاً: معاني الإيمان:

الإيمان لغة: التصديق. ويشهد القرآن لهذا المعنى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[1].

يعنون: ما أنت بمصدق لنا. وقد قال إخوة يوسف هذا لأبيهم، إذ أكذبهم في دعواهم أن يوسف أكله الذئب.

والتصديق يكون بالقول، والعمل، والنية:

١ ـ فالشهادة قولاً بصدق الحديث، تصديقٌ له، قال الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[2].

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[3].

(١) سورة يوسف: آية ١٧. (٢) سورة البقرة: آية ٨٩.
(٣) سورة القصص: آية ٣٤.

فاليهود كانوا يخبرون بقرب ظهور النبي محمد ﷺ، ولما جاء ﷺ بالقرآن، وهو شاهد بصدق التوراة، كفروا به.

٢ ـ والعمل المطابق للقول، أو انجاز الوعد بعد إعطائه، كذلك صدق فيه وتصديقٌ له، قال الله سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1].

٣ ـ واعتقادك الموافق للحق والصدق، تصديق قلبي: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[2].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾[3].

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾[4].

وكلٌّ من التصديق بالقلب، والقول، والعمل: إيمان.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون ـ أو بضع

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٢٣.   (٢) سورة الزمر: آية ٣٣.

(٣) سورة الليل: آية ٥ ـ ٧.   (٤) سورة المعارج: آية ٢٦ ـ ٢٧.

وستون[1] ـ شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[2].

فشهادة أن لا إله إلا الله قولاً باللسان، تصديق لأمر رسول الله ﷺ الإقرار والنطق بها، وتصديق للتوحيد الذي نطقت به.

وإماطة الأذى عمل مصدِّق لإيمان القلب، ولقول اللسان. والحياء إحساس يتولد في القلب، من معرفة الحق، والخضوع له،وهذه الشعب الثلاثة، تجمع الاعتقاد، والقول، والعمل. وهي تمثل شعب الإيمان جميعاً.

وأصل الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وتؤمن بكل ما جاء به الكتاب، ونطقت به السنة الصحيحة، إيماناً ثابتاً، وتصديقاً قاطعاً، لا يعتوره شك، ولا يعترضه توقف أو تكذيب، ولا يشوبه تحريف أو تعطيل.

فالتكذيب بشيء من ذلك، أو التشكك فيه بعد ثبوته، إنما هو تكذيب لكتاب الله، ولسنة رسوله ﷺ، وهو مناقض لأصل الإيمان، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ

(١) وفي رواية لمسلم، بغير شك «بضع وسبعون».
(٢) صحيح مسلم: ١/٤٦.

بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾[1].

فمن كذب بشيء من ذلك، أو شك فيه، بعد ثبوته من طريق الكتاب، أو السنة، فقد نقض أصل إيمانه، وأحبط عمله، ومن بدّله أو حرّفه، فإنما عليه إثم تحريفه. وتبديله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[2].

وهذا القدر من الإيمان، هو ما كان علماء السلف يقطعون به، ويجزمون بحصوله، ويقول أحدهم بشأنه، أنا مؤمن حقاً.

وإذا تأملت حقيقة الإيمان، بعيداً عن إيمان العوام والجهلة، الذين يكفي منهم حصول التسليم الإجمالي، والإيمان الكلي، دون بحث في التفاصيل، علمت أن الإيمان الصحيح تصديقاً، إنما يقوم على العلم، ويرتكز على المعرفة، علماً صحيحاً، ومعرفة سوية، قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ ﴾[3].

فالتوحيد إنما يقوم على العلم بالوحدانية: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾[4].

---

(١) سورة الزمر: آية ٣٢.
(٢) سورة فصلت: آية ٤٠.
(٣) سورة محمد: آية ١٩.
(٤) سورة مريم: آية ٦٥.

وإذ لم نعلم لله سمياً، يستحق شيئاً من الصفات المثلى، التي دلت عليها أسماؤه الحسنى سبحانه، فقد وجب إفراده بالعبادة كلها، ذلك هو أصل شهادة التوحيد؛ العلم الذي يوجب الإسلام: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1].

والحقيقة التي لا مرية فيها ولا خلاف، أن علم الإنسان بحقائق الأشياء، ومعرفته بما تعود عليه، من خير أو شر، وصلاح أو فساد، هو الذي يحدد موقفه منها، وقد جلّى القرآن هذه الحقيقة: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[2].

فهو دوماً حريص على لذته، وعلى خيره ونفعه، منوعٌ له، كارهٌ لما ينغص عليه أو يؤذيه.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾[3].

فهو إذا ما ظن بنفسه القدرة والإستغناء، وأنه فوق

(١) سورة آل عمران: آية ١٨ ـ ١٩.

(٢) سورة المعارج: آية ١٩ ـ ٢١. (٣) سورة العلق: آية ٦ ـ ٨.

الحساب والمؤاخذة، أخذته العزة، وجرفه العتو والطغيان، وحطم كل الضوابط والحدود، ومن هنا نفهم كيف كان العلم قيداً للغرائز؛ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

ومن هذه الحقيقة الفطرية، يمكننا أن ندرك معنى بالغ الأهمية، لدور أصول الإيمان، التي يشترط القطع بها، لحصول الحد الأدنى من الإيمان. وأمكننا أن نخرج بهذه الأصول العظيمة، من دائرة المشاكسة الجدلية، وأن ننفض عن مفهومها، غبار عصور الانحطاط العلمي، والترف الفلسفي.

فأصول الإيمان التي ذكرها رسول الله ﷺ، تحت مسمى الإيمان، جواباً تعليمياً على سؤال جبريل عليه السلام:

هي قاعدة علمية لأصول التصور الإسلامي للكون والحياة. تحدد للإنسانية مصادر المعرفة المعصومة، الجامعة لها، إحاطة وشمولاً ودقة وعمقاً، من أوسع آفاق الكون المترامية، وحتى أدق الخلجات التي تتحرك في صدر الإنسان، وإلى تحديد السنن الثابتة التي تحكم مسيرة الحياة، وتقرر نتائج كل حركة تتم فيها.

وهي من ثم: تؤسس للحياة منهجاً إنسانياً متكاملاً، ينظم أفكار الإنسان، ويحدد ثوابت تفكيره ويصوغ مفاهيمه الكونية، والشخصية، والاجتماعية، ويربي إرادته، ويوجه مساره، ويحدد أهدافه.

وبالاحتكام إلى أصول هذه القاعدة، يتعرف الإنسان المسلم، إلى الخير والشر، والحق والباطل، ويميز بين الصلاح والفساد، والنافع والضار، ويعرف النتائج القريبة والبعيدة، للمعصية واتباع الهوى.

ومن خلال ثوابتها، وضمن إطارها، تتم استجابة العقلية الاجتهادية[1]، لاستيعاب المستجدات، وتلبية الاحتياجات، وربط فطرة الإنسان، إرادة وشعوراً وحركة، بمنهج الاستخلاف الراشد.

وباليقين الذي لا ريب في ثناياه، والعمل المخلص المتفاني، والاهتداء بهداية أصول الإيمان والعلم: قرآناً وسنة، تصفو النفوس من أكدار العوج الخلقي، ويتجلى سبيل الفطرة ظاهراً جلياً، ويرتقي الإنسان في مدارج الإيمان، لتصبح حياته: ذكراً يحيي معاني العلم، وعلماً يرفد العزيمة، ويربي الإرداة، وحركة ماضية في سبيل البناء، دون تلكىء أو التفات إلى الخلف: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ

---

(١) عند أئمة المسلمين وعلمائهم.

وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[1].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[2].

ولا يصعب علينا بعد أن عرفنا الإيمان، في صورته الحية الفاعلة، أن نعلم بأن العمل داخل في مفهوم الإيمان، إذ أن التصديق والإقرار باللسان، إذا بقيا دون عمل، بقي الإيمان أساساً بلا بناء، وغصناً بغير ثمر، ومبتدأ ليس له خبر. وإنما ينفع الأساس، ليقوم عليه البنيان، ويفرح الناس بالشجر، إذ يأتي بالثمر، فلا معنى للإيمان بدون عمل، بل هو ادعاء جدير بالمقت، وحري بالبغض: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾[3].

ورسول الله ﷺ، وهو المعصوم الذي لا يقول إلا حقاً، قد سمىٰ العمل إيماناً، كما دلت أحاديث كثيرة، منها: «أمرت

(١) سورة الأنفال: آية ٢ ـ ٤. (٢) سورة الحجرات: آية ١٥.
(٣) سورة الصف: آية ٢ ـ ٤.

أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله»[1].

ومعلوم أن عصمة الدم والمال، إنما تثبت بأمر ظاهر، مما يمكن معرفته وضبطه، دون الاعتقاد الباطن، وهذه صفة العمل، فتعليق العصمة على العمل الظاهر، لا سيما وقد سماه رسول الله ﷺ إيماناً، لا معنى له إلا أن العمل الظاهر إيمان.

ومثل ذلك في الدلالة، قول رسول الله ﷺ لوفد عبد القيس، وهم حديثوا عهد بالإسلام، جاءوا يتعلمون دينهم منه ﷺ: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟» قالوا: (الله ورسوله أعلم). قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا الخمس من المغنم»[2].

وهذه المذكورات في الحديث، تحت اسم الإيمان، كلها أعمال ظاهرة، والأدلة غير هذه في الكتاب والسنة، على أن الأعمال إيمان، كثيرة جداً، وبعضها يكفي لفهم هذه المسألة.

ولا خلاف ثالثاً: زيادته (بعد هذا) في تفاوت الناس في العمل، إذ يكون منهم النبيين والصديقين والشهداء

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٣٩. (٢) صحيح مسلم: ١/ ٣٦.

والصالحين، الذين يشفعون في أناس من أصحاب المعاصي، حتى يخرجهم الله بشفاعتهم من النار، ومنهم الذين يكبون في النار، حصائد أعمالهم، حتى يخرجوا منها بالشفاعة، وكلهم مسلم، وكلهم من الأمة المصطفاة، كما بيَّن كتاب الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[1].

وما دامت شعب الإيمان كثيرة، ومنها الأعلى، ومنها الأدنى، والناس في ذلك، بين مكثر ومتوسط ومقلٍّ، فكل ذلك تفاوت في درجات الإيمان: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[3].

وإذا تأملت اختلاف الناس، في يقين القلب وتصديقه، لما شككت في تفاوتهم في هذا التصديق واليقين، فاليقين إنما هو

---

(١) سورة فاطر: آية ٣٢.
(٢) سورة المجادلة: آية ١١.
(٣) سورة الحديد: آية ١٠.

علم، ومصادر العلم وأسبابه كثيرة، فتلاوة القرآن، والتفكر في آياته مصدر من مصادر العلم: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾(١).

ووسيلة لرسوخ اليقين، وإزالة الشبهات والوساوس: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٢).

والتفكر في ملكوت السمٰوات والأرض، وفي بديع صنع الله، مصدر من مصادر العلم، وسبب من أسباب اليقين بصدق دعوة الإسلام، والقطع بمصدرها الإلهي، وصدق ما جاءت به من خبر عن الله: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾(٣).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾(٤).

---

(١) سورة إبراهيم: آية ١.
(٢) سورة الإسراء: آية ٨٢.
(٣) سورة فصلت: آية ٥٣.
(٤) سورة فاطر: آية ٢٨.

والتوكل على الله في الشدائد، والثبات فيها اعتماداً على عونه ورحمته، هو من أعظم أسباب زيادة اليقين والتصديق بوعده: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1].

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[2].

وبازدياد الفتن الواردة على القلوب، تزداد تفاوتاً، في زيادة الإيمان أو نقصه، كما في حديث حذيفة رضي الله عنه: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكت فيها نكتة، سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنةٌ ما دامت السمٰوات والأرض، والآخر أسود مرباداً، كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه»[3].

ومصير القلب إلى أبيض كالصفا لا تضره فتنة أبداً، ومصير الآخر إلى السواد الخالص، حتى لا يعرف معروفاً، ولا يحب حسنة، ولا يكره سيئة، لا معنى له غير زيادة الإيمان،

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٧٣. (٢) سورة الأحزاب: آية ٢٢.
(٣) صحيح مسلم: ١/ ٨٩.

واكتماله في الأول، بعد نقصٍ، وغير نقصانه حتى خلا من الخير في الثاني.

بل إن قلوب الصديقين، لا تثبت على حال واحد من اليقين في كل أحيانها، وإنما تؤثر في صفائها، أسباب الزيادة أو النقص، روى الإمام مسلم، عن حنظلة الأُسيدي، كاتب رسول الله ﷺ قال: (لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة. قال: سبحان الله، ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار، حتى كأنّا رأي[1] عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات[2]، فنسينا كثيراً، قال أبو بكر رضي الله عنه: فوالله إنا لنلقىٰ مثل هذا.. الحديث)[3].

فهذا صدِّيق الأمة، يقسم بالله، أنه يجد تغيراً واختلافاً، بين حال القلب عند الذكر، وبين حاله عند الاشتغال بأمور الدنيا، فتكفي هذه الشهادة المؤكدة باليمين، ومن مثل الصديق الأول، بعد رسول الله ﷺ، ليثبت لنا يقيناً، أن يقين

(١) أي كأنا نراها رأي عين، وذلك من شدة اليقين بخبر رسول الله ﷺ.
(٢) عاشرنا الأزواج، ولاعبنا الأولاد، واشتغلنا بالضيعات.
(٣) صحيح مسلم: ٩٤ ـ ٩٥.

الإنسان وتصديقه، يزداد وينقص، وبالتالي فالناس متفاوتون في تصديقهم، مثل تفاوتهم في أعمالهم، وإذا أنصفنا قلنا: إن تفاوت اليقين، هو سر تفاوت العمل، من رجل إلى رجل، ومن وقت إلى آخر، ولو تشابهت القلوب في جزمها وإرادتها لتشابهت الأعمال، كما قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1].

وفي الحديث عن الأغرِّ المزني رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليغان[2] على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»)[3].

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[4].

وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ

---

(١) سورة البقرة: آية ١١٨.

(٢) قال في «لسان العرب» في تفسير الغين: «أراد ما يغشاه في السهو، الذي لا يخلو منه بشر، لأن قلبه أبداً كان مشغولاً بذكر الله، فإن عرض له وقتاً ما، عارض بشري يشغله، من أمور الملة والأمة ومصالحهما، عدَّ ذلك ذنباً وتقصيراً، فيفزع إلى الاستغفار» [١٠/١٦٢ ـ ١٦٣].

(٣) صحيح مسلم: ٨/٧٢.

(٤) سورة البقرة: آية ٢٦٠.

لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة الحديد: آية ١٦.

رابعاً: الإيمان بالله:

لو تأملت الأديان الباطلة، لوجدت فسادها على اختلاف مظاهره، يرجع إلى تصورها الفاسد للمعبود، أو جهلها به، أو فساد مصدر العبادة التي تدين بها، وكلامنا الآن يتناول الفساد الذي ينشأ من جهل الناس بمعبودهم، وهذه بعض الأمثلة على هذا الفساد:

١ ــ جاء في حديث الشفاعة: «فيدعى اليهود، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد»[١].

وفرية اليهود على الله باتخاذه الولد، حملتهم على الظن أن صفات الألوهية قد انتقلت إليه، حتى عبدوه، وكفروا بالله.

٢ ــ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[٢].

---

(١) صحيح مسلم: ١١٥/١. (٢) سورة التوبة: آية ٣٠.

وقد زاد النصارى غلواً في عيسى، على غلو اليهود في عزير، حتى زعموا أن الله سبحانه وتعالى حل في جسد عيسى عليه السلام، وأنه سبحانه ثالث ثلاثة في الألوهية: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

وقد اجتمع إلى جهل أهل الكتاب بوحدانية الإله، جهلهم بصفاته إذ خرقوا له ولداً سبحانه.

٣ ـ **وأما عبّاد الأصنام من مشركي العرب**، الذين عدلوا عن عبادة ربهم وخالقهم، إلى عبادة أحجار صمّاء، فقد كانت دعواهم:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[2].

---

(١) سورة المائدة: آية ٧٢ ـ ٧٣. (٢) سورة الزمر: آية ٣.

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾[1].

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[2].

وقد جمعت تصورات المشركين ألواناً من الانحراف والفساد، حيث زعموا أن عبادتهم للأصنام، التي على صورة الملائكة كما توهموها، إنما هي عبادة لله، وزعموا افتراء، أن الله أذن لهم بتلك العبادة الفاسدة، ونسبوا إليه أدنى الولد قدرة وفصاحة، وهي الإناث، كل ذلك افتراء، أو حكماً بالوهم الكاذب، دون علم ولا هدىً.

وانحراف المشركين في تصوراتهم، إما أن يكون في خلع صفات الألوهية على المخلوقات، من حجر أو بشر أو ملك، وكلها لا تستحق هذه الصفات، كما في قول اليهود في عزير، وقول النصارى في عيسى المسيح، وقول الوثنيين في الملائكة، وهذا قسم.

أو في وصف الله سبحانه، وهو رب العالمين، المتفرد بصفات الجلال والعظمة والقدرة والجبروت، بصفات

---

(١) سورة الزخرف: آية ١٥. (٢) سورة الزخرف: آية ١٩ - ٢٠.

المخلوقين الضعفاء، كما في نسبة الولد إليه سبحانـه، ونسبة البنـاتِ، وكما في قـول اليهود، عليهم لعـائن الله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقولهم عليهم سخط الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾. وأمثـال ذلك الافتراء، وهذا قسم ثان.

والتـوحيد الـذي جاء بـه الإسلام، لا يمكن أن تتجـلى مفاهيمه، أو تتحدد حقائقه، دون فرقان يبين صفـات الرب جل وعلا، ويميز بين هذه الصفات، وبين صفات المخلوقين، ويفصـل بين الحق والبـاطل، وبـين حقـائق العلم، وأوهـام التخـرص والجهل، ليحيى عقـل الإنسان بـالعلم، وبينـات الهدى والحق، ولذا تَنَزَّل القرآن بـالحق الصريح، والهـدي السديد الصحيح، محكماً غير ذي عوج، مفصلاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، داعياً إلى عبادة الله وحده، وإلى تنزيهه سبحانه عن عجز المخلوقين وضعفهم: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٥.

ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (١).

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (٢).

﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٣).

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (٤).

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٥)،

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٨.
(٢) سورة الإخلاص: ١ - ٤.
(٣) سورة الصافات: آية ١٨٠ - ١٨٢.
(٤) سورة الشعراء: آية ٩٦ - ٩٨.
(٥) سورة الأعراف: آية ١٨٠.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[1].

وإذا كان الناس قبل الإسلام مقرين بربوبية الله، وقد أشركوا معه في ألوهيته، فإن الإسلام قد جاء بتنزيه الربوبية الحق؛ ليقيم توحيد الألوهية الحق، وتنزيه الربوبية، إنما يبتديء بمعرفة صفات الله سبحانه وأسمائه، وتنزيه هذه الأسماء والصفات، عن مشابهة أسماء المخلوقين وصفاتهم، وذلك هو غرض توحيد الأسماء والصفات، وهو أول مراتب التوحيد الحق، وأحد أركانه.

لقد اتجه العقل الجاهلي، إذ كان غارقاً في ظلمات الجهل، إلى عبادة الأحجار، ظناً منه أنها تملك له شيئاً من الضر والنفع، وعندما تحرر الإنسان ـ برسالة القرآن ـ من أوهام الخرافة، وعرف ربه كما ينبغي أن يعرفه، هجر كل قبلة كان عليها، ولم يلتفت يمنة ولا يسرة، بل اتجه بكل جوارحه وحواسه، شطر قبلة التوحيد الخالص. ذلك أنه أيقن، أن الخير كل الخير، والنفع كل النفع، والحق كل الحق، في ظل طاعة الله وفي ظل تنزيهه وتسبيحه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ

(١) الشورى: ٩ ـ ١١.

تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾(١).

إن الإيمان بربوبية الله، توحيداً وتنزيهاً، يعني أن نؤمن، أن الله تعالى، هو الخالق المتفرد بالخلـق، وهو الصانع المبدع، المتفرد في صنعه وإبداعه، وهو العليم فوق كل ذي علم، لا تخفىٰ عليه خافية في الكون، وإن دقَّت، يعلم خائنة الأعين، ويعلم خلجـات القلوب، وما تنقص الأرض من الأمـوات، ويعلم ما كان، قبل أن يكون، وأن نؤمن بأن الله تعالى هو المالك للملك، القاهر فوق عباده، لا يكون في ملكه إلا ما يشاء، وهو ملك يوم الدين، كل جبار آتيه ذليلاً فرداً، وكل الناس معروضون عليه صفاً، يعز من يشاء، ويذل من يشاء،

---

(١) سورة الشعراء؛ آية ٧٥ ـ ٨١؛ والتوحيد دين الأنبياء جميعاً، فهو دين إبراهيم، كما هو دين محمد عليهم السلام.

ويرزق من يشاء، ويقدر رزقه إذا شاء، بيده الرفع والخفض، والنفع والضر، لا مانع لما يعطي، ولا معطي لما منع، الجبار المتكبر، العزيز المهيمن، لم يكن له شريك في الأمر، أو ولي من الذل.

والعلم بهذه الصفات، أول سبيل الإيمان بها، لا سبيل إليه إلا بالعلم: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

والعلم بهذه الصفات، والنهج بها في منهجها، هو توحيد الله في هذه الصفات؛ وتنزيهه سبحانه فيها، وفيما دلَّ عليها من الأسماء، فتوحيد الأسماء والصفات، ليس إلا علم المسلمين وإيمانهم بصفات الرب جل وعلا، وهي صفات الربوبية نفسها.

وغنيٌّ عن الذكر، أن اختلال معرفة المسلم لأسماء الله الحسنى، وصفاته المثلى، سيؤدي بغير ريب، إلى اختلال معرفته لربه جل وعلا، واختلال معنى الربوبية في اعتقاده وتصوره، وفي إيمانه.

ومن هنا قال علماء التوحيد: إن المشبِّه عبد صنماً، والمعطِّل عبد عدماً، أي أن من شبّه صفات الله تعالى بصفات خلقه، فقد عبد صنماً من الأصنام، ولم يعبد الله تعالى، المنزه في صفاته عن مشابهة الخلق، ومن عطل صفات الله تعالى، لم يعبد الله الموصوف بتلك الصفات.

إذا فهمت هذا، أدركت أن توحيد الربوبية كشجرة، أصلها توحيد الأسماء والصفات، وأنه قائم به، كما تقوم الشجرة بأصلها، والبنيان بقواعده.

وإذا كان هذا شأن توحيد الله تعالى، وتنزيهه في أسمائه وصفاته، وهذا دوره في توحيد الله في ربوبيته، فما هو شأن هذا التوحيد، في توحيد الألوهية؟.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[2].

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «لله تسعة وتسعون إسماً، من حفظها دخل الجنة، وإن الله وتر، يحب الوتر» وفي رواية ابن أبي عُمر: «من أحصاها»[4].

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٨٠. (٢) سورة الإسراء: آية ١١٠.

(٣) سورة غافر: آية ٦٠.

(٤) رواه مسلم: ٢٠٦٢/٤؛ والبخاري: ٣٨٩/١٣، الفتح.

فدعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى، فرض على المسلم المكلف، بموجب أمره سبحانه، والإلحاد في أسمائه سبحانه، فعل يستوجب الوعيد، وقد نهى عنه الله تعالى. ومن الإلحاد في أسماء الله تعالى، ما صنعه المشركون، إذا اتخذوا (العزّى) من اسمه العزيز، (واللات) من اسمه الله جل جلاله.

قال الإمام المفسر ابن كثير رحمه الله: «قال قتادة: يلحدون. يشركون في أسمائه. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: الإلحاد التكذيب. وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف»[1].

فكل ميل بأسماء الله تعالى عن معانيها، أو انحراف عن مقاصدها، هو إلحاد. قال ابن منظور: «أبو عبيدة: لحدتُ له، وألحدتُ له، ولحد إلى الشيء يلحد، والتحد: مال. ولحد في الدين يلحدُ وألحد: مال وعدل. وقيل: لحد. مال وجار. ابن السكيت: الملحد: العادل عن الحق، المدخل فيه ما ليس فيه»[2].

وللعلماء في معنى حفظ الأسماء الحسنى، أقوال عديدة، من أحسنها ما ذكره الحافظ ابن حجر، في شرحه للحديث، عن ابن بطال: «الإحصاء يقع بالقول، ويقع بالعمل، فالذي

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٣٦٩. (٢) لسان العرب: ١٢/٢٤٦.

بالعمل، أن لله أسماء يختص بها، كالأحد والمتعال والقدير ونحوها، فيجب الإقرار بها، والخضوع عندها، وله أسماء يستحب الاقتداء بها في معانيها، كالرحيم والكريم والعفو ونحوها، فيستحب للعبد أن يتحلى بمعانيها، ليؤدي حق العمل بها في العد والحفظ، وأما الإحصاء القولي، فيحصل بجمعها وحفظها، والسؤال بها»[1].

فحفظ أسماء الله تعالى، والإقرار بها لفظاً ومعنى، والعمل بما فيها من صفات يمكن الاقتداء بها، كالرحمة والكرم، وتنزيه الأسماء المختصة به سبحانه، عن المشاركة، كالقدوس والجبار والمتكبر، كل ذلك عبادة، تدخل المسلم جنة ربه، ومخالفته بالإلحاد في معاني الأسماء، أو تكذيب شيء منها، أو نقضها بالشرك، تودي بصاحبها، حيث وضعه انحرافه وإلحاده، في الخزي والعذاب. وكان رسول الله ﷺ: (إذا أخذ مضجعه من الليل، قال: «باسمك نموت ونحيا»)[2].

وقال ﷺ: «إذا جاء أحدكم فراشه، فلينفضه بصنفة[3] ثوبه ثلاث مرات، وليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها، فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[2].

---

(١) فتح الباري: ١٣/ ٣٩٠. (٢) صحيح البخاري: ٣/ ٣٩٠.
(٣) صنفة الثوب. بفتح الصاد، وكسر النون. طرَّته أو طرفه.

فتوحيد الأسماء والصفات: علم وتنزيه، وإقرار وخضوع، وعبادة وشمائل، وتضرع ودعاء. والإخلال به: شرك، أو تكذيب، أو إلحاد، أو معصية، أو تقصير.

فالإيمان بالله تعالى، قائم على توحيد الله سبحانه، في أسمائه وصفاته، وفي ربوبيته، وفي ألوهيته، والإعراض عن أي توحيد من هذه، هدم لها جميعاً: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[1].

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2].

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[3].

وأما الإيمان بالله، واحداً في أسمائه وصفاته، واحداً في ربوبيته ورحمته وعظمته، واحداً في ألوهيته، فهو الإيمان الذي تخشع له القلوب، وتطمئن به النفوس، وتنقاد له الفطرة: خضوعاً واستسلاماً، ويقوِّم حركة الإنسان، ويغير مسيرة البشرية.

---

(١) سورة الفرقان: آية ٦٠. (٢) سورة الشعراء: آية ٢٣.
(٣) سورة ص: آية ٤ ـ ٥.

خامساً: الإيمان بملائكته:

الإيمان بالملائكة ركن للإيمان، ومن لم يؤمن بخلق الملائكة، لم يؤمن بنزول الوحي إلى رسول الله ﷺ، لأن جبريل عليه السلام، هو الذي تنزل بالقرآن على رسول الله ﷺ، ونزل إليه بكثير من السنة، فالإيمان بالقرآن، والإيمان بنبوة محمد ﷺ، وبسنته، لا تثبت دون الإيمان بالملائكة.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

وقد أخبر رسول الله ﷺ، أن جبريل تنزل عليه بالوحي، كما في كتاب بدء الوحي من أول صحيح البخاري، وفيه قوله ﷺ: «.. ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾[2].

وأخبر الله تعالى، أن جبريل: الروح الأمين، هو الذي

(١) سورة الشورى: آية ٥١.   (٢) فتح الباري: ١/ ٣٠.

تنزل بالقرآن على رسوله ﷺ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(1).

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(2).

والملائكة خلق من عباد الله، خلقهم من نور، كما بين حديث رسول الله: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»(3).

وأنهم ذوو أجنحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(4).

فمنهم من له جناحين، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربع، ومنهم من له أكثر من ذلك.

وللملائكة أعمال مختلفة، فمنهم رسل الله بينه وبين أنبيائه كجبريل عليه السلام، ومنهم الموكلون بكتابة أعمال بني آدم،

---

(1) سورة البقرة: آية ٩٧.
(2) الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥.
(3) رواه مسلم: ٨/٢٢٦.
(4) سورة فاطر: آية ١.

وهم الذين قال عنهم القرآن: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1].

ومنهم موكل بقبض أرواح بني آدم، كما قال الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾[2].

ومنهم من يحفظون الإنسان من الغوائل والمصائب: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[3].

وهم قائمون على جهنم بأمر الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾[4].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[5].

---

(١) سورة ق: آية ١٨.
(٢) سورة الأنعام: آية ٦١.
(٣) سورة الرعد: آية ١١.
(٤) سورة المدثر: آية ٣١.
(٥) سورة التحريم: آية ٦.

ومن الملائكة حملة عرش الرحمن، وهم والذين حول العرش، يدعون ويسبحون ويستغفرون للذين آمنوا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[1].

وهم بعد كل هذا، عباد مربوبون، ليس لهم إلا شرف العبودية والطاعة: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾[2].

---

(١) سورة غافر: آية ٧ ـ ٩.　　(٢) سورة الأنبياء: آية ٢٦ ـ ٢٨.

سادساً: الإيمان بكتبه:

كتب الله، هي الكتب التي أنزلها على رسله من البشر، وحملت إليه دعوة التوحيد الخالص، ومنهج الحياة الراشد، والكتب التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، الكتاب المنزَّل على نبينا محمد ﷺ هي:

التوارة التي أنزلت على موسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[1].

والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾[2].

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) سورة الحديد: آية ٢٧.

والزبور المنزل على داوود عليه السلام: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[1].

والصحف المنزلة على إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[2].

وآخر هذه الكتب وخاتمها، القرآن أو الفرقان المنزل على نبينا محمد ﷺ.

وهذه الكتب حقٌّ كلها، لا يجوز المراء فيها، بل يجب أن نؤمن بها، وبكل ما جاء من عند الله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[3].

وقد جعل الله لكل كتاب من كتبه المنزلة، أجلاً مضروباً، ومدة محدودة، فإذا انتهى وقته، نسخه بما ينزل بعده، حتى نسخت كلها بالقرآن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ

(١) سورة النساء: آية ١٦٣. (٢) سورة الأعلىٰ: آية ١٨ - ١٩.

(٣) سورة البقرة: آية ١٣٦.

أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾[1].

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[2].

ومن الإيمان بالقرآن، أن نؤمن أنه كلام الله حقيقة، ليس بكلام جبريل، بل هو لفظاً ومعنىً؛ كلام الله تعالى، قال عز وجل: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾[4].

---

(١) سورة الرعد: آية ٣٨ ـ ٣٩. (٢) سورة المائدة: آية ٤٨.
(٣) سورة البقرة: آية ٧٥. (٤) سورة التوبة: آية ٦.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾[1].

وإذا علمت أن الكلام هو لفظ ومعنى، فالمسموع من القاريء، هو كلام الله لفظه ومعناه: بصوت القاريء، فمن قال أن القرآن كلام جبريل، فقد كاد يزعم أن جبريل هو القائل: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[2]. والقائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[3]. والقائل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[4].

هي وأمثالها، فإذا صرح بهذا فقد كفر بالله العظيم، وضاهي قول المشركين عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[5].

ومن الإيمان بالقرآن الكريم، أن نؤمن أن هذا الكلام

---

(١) سورة الفتح: آية ١٥.
(٢) سورة الزمر: آية ٥٣.
(٣) سورة البقرة: آية ١٨٦.
(٤) سورة الإنسان: آية ٢.
(٥) سورة المدثر: آية ٢٥ - ٢٦.

الإلهي، قد أعجز الإنس والجن، أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، بياناً وفصاحة، وإحكاماً وتفصيلاً، لأن الله تعالى قد تحدى به الثقلين، منذ أن أنزله، وقد كان العرب عندها، أرباب الفصاحة، وفرسان البيان، ولم يأت أحد منهم بشيء من ذلك، وإذا عجز عنه أهل البيان، من أبناء العربية الصرفة، في عصورها الزاهرة، فمن دونهم من العجم والهند والروم، وكذلك العرب الذين ضاعت سليقتهم الفصحى، وخالطتهم العجمة، أولى بالعجز وأحرى.

ومن قواعد الإيمان بالقرآن العظيم، أن نؤمن أن الله حفظ هذا الكتاب من كل تبديل أو نقص، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1].

فمن زعم أن هذا القرآن، قد زيد فيه، أو نقص منه، حرفاً واحد، عما تركه عليه رسول الله ﷺ، فقد كفر به كله، وحبط عمله، ولم ينفعه صوم ولا صلاة ولا سواها.

ومن زعم أنه يسعه تصديق بعضه، دون بعض، أو تكذيب شيء مما أخبر به، أو مخالفته في بعض أخباره، أو شرائعه، فقد كفر به كذلك، وإن صام وصلى، وزعم أنه مسلم.

(١) سورة الحجر: آية ٩.

وجماع الإيمان بالقرآن، أن نصدق كل أخباره، ونلتزم بشرائعه، وننهج نهجه، ونلزم سبيله، فتكون له الطاعة ابتداء، ونرجع إلى حكمه عند الاختلاف، ومن ذلك أن نعرض على هديه؛ ما لدينا من أصول، ونصحح بذلك ما نحمله من مفاهيم، ونترك له البتَّ في صياغة وتوجيه الأصول والمفاهيم، ولا نتقدم بين يديه بقول، أو نعترض على حكمه برأي.

ولن يتم ذلك؛ إلا بالرجوع إلى السنة النبوية، وتفسير القرآن على ضوئها، فذلك هو سبيل المؤمنين، ومنهاج الراشدين، وقد سبقت الإشارة إلى هذه القضية فيما سبق، فأما الإعراض عن بيان السنة، وتفسيرها للقرآن، وننكب صراطها في تفصيله، أو تقديم الرأي على هديها؛ بزعم أنه ظاهر القرآن، أو أن السنة تخالف القرآن، وأن الواجب تقديم القرآن على السنة، لأنه الأصل الأول، فهو عين المخالفة للقرآن، قبل أن يكون شغباً على السنة المعصومة، وانتكاساً عن سبيلها، ولأن فاعل ذلك قد فسر القرآن برأية، وقدم هذا الرأي على بيان رسول الله ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، وخالف سبيل النبوة، الذي التزمه المؤمنون من الصحابة، إذ كانوا يتلقون تفسير القرآن من رسول الله ﷺ، ولا يعدلون به أي تفسير غيره.

وإن من البركة العاجلة للإيمان بالقرآن، والثواب السريع للتصديق التام به:

إعادة الوحدة التي أضاعها جهل المسلمين وتفريطهم، إلى صفوفهم، واستعادة تآلفهم الضائع، واسترداد وحدة القلوب والمشاعر، والمفاهيم والمناهج، والصفوف والدعوة.

ونفض قترة الذل عن الوجوه، وقتار الوهن من النفوس، وليس بيننا وبين هذا الأمل المنشود، سوى أن نصدق في الاحتكام إلى هذا القرآن، ونسقط كل القناعات والسبل التي تقف بين عقولنا، وبين هديه، قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١].

(١) سورة البقرة: آية ٢١٣.

سابعاً: الإيمان برسله:

الإيمان بالله أولاً، ثم بملائكته، وكتبه، يقتضي الإيمان برسله، فهم أمناء الله على دينه، والواسطة بينه وبين عباده، وقد أرسل الله إلى الناس رسلاً، وبعث أنبياء، منهم من قص علينا خبرهم، ومنهم من لم يقصص، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(1).

والأمر الأول الذي أرسل الله لأجله الرسل، تبليغ دعوته، بلاغاً مبيناً، يظهر الحق، ويدفع الشبهات: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾(2).

---

(١) سورة النساء: آية ١٦٣ - ١٦٤.

(٢) سورة الحديد: آية ٢٥.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾[1].

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2].

وقد أيدّ الله رسله بالحجج الدالة على صدقهم، والبراهين المؤيدة لرسالاتهم: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾[3].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾[4].

﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾[5].

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾[6].

وقد آتى الله موسى عليه السلام، آية العصا التي تنقلب حية، ويده التي تخرج من جناحه بيضاء من غير مرض ولا

---

(١) سورة إبراهيم: ٤.
(٢) سورة النساء: آية ١٦٥.
(٣) سورة البقرة: آية ١٤٤.
(٤) سورة الأنعام: آية ١١٤.
(٥) سورة الأعراف: آية ١٠١.
(٦) سورة الأنبياء: آية ٥.

أذى، وتسع آيات إلى فرعون، وآتى عيسى إحياء الميت، وشفاء المرضى بإذنه، وآتى إبراهيم من قبل قوة الحجة، وجعل له النار برداً وسلاماً، وآتىٰ نبينا ﷺ معجزة القرآن العظيم، وانشقاق القمر، وغيرها من الخوارق.

والإيمان بأنبياء الله ورسله جميعاً، فرض على كل من صدق بأحدهم، إذ التكذيب أو الطعن في صدق أحدهم، تكذيب لهم جميعاً، ما دام كتاب الله جاء بإثبات نبوتهم، فمن كذب نبياً واحداً، فقد كذب بالقرآن الذي أخبر بنبوته.

ومن صدق بنبوة نبي، وجب عليه أن يصدق بكل ما يخبر به، فتكذيبه في أمر واحد، مما أخبر به، يناقض الإيمان بنبوته.

ونبينا محمد ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين، فهو خاتمهم لا نبي بعده: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

فكل من ادعى النبوة بعده، فهو كاذب على الله.

ونبينا ﷺ هو رسول الله إلى الناس جميعاً، أبيضهم وأسودهم، وعربهم وعجمهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى

﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

وقد بشرت الكتب السابقة بنبوته، وقرب ظهوره، وكان اليهود أول الناس إعلاناً لذلك، فلما جاء من غيرهم كفروا به: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

فمن عند اليهود الكذبة، وجدت الفرية التي تشيع بين النصارى: أن محمداً نبي العرب، وليس نبياً لغيرهم، فليس عليهم هم، أو على غير العرب أن يؤمن به، وكأن الله استودع نبيه رسالة ناقصة مغلوطة، واستودع اليهود أعداء الأنبياء،

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٥٨. (٢) سورة البقرة: آية ٨٩ - ٩١.

تتمتها وتصويبها والعياذ بالله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[1].

قال رسول الله محمد ﷺ، أمين وحي الله، وخاتم أنبيائه ورسله: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[2].

وقال الله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة: آية ٨٧.   (٢) رواه مسلم ٩٣/١.

(٣) سورة البقرة: آية ١٣٦ - ١٣٧.

ثامناً: الإيمان باليوم الآخر:

ومن أسمائه أيضاً: يوم القيامة، والحاقة، والواقعة، والساعة، والصاخَّة، والغاشية، والطامة الكبرىٰ، والقارعة، والآزفة، والنبأ العظيم، ويوم البعث، والنشور، والحساب، ويوم الدين، والفصل، والخروج، والزلزلة، والنفخة، والمعاد، والوعد الحق، والحشر.

وهذا اليوم أعظم ما يمر بالبشر، وأخطر ما يشهد الإنسان من أحداث، ففيه يتقرر مصير كل إنسان، وتتحدد نهاية الرحلة الطويلة التي مر بها، وهو المستقر الأخير الذي تنتهي إليه الأحداث، وتجتمع النهايات، وتحتشد فيه الأنباء.

هذا الوعد الحق، والحقيقة الكبرى، أساس من أسس التصور الإسلامي، للكون والحياة، وهو بلا ريب أبعد آفاق السلوك الإنساني، الذي تنتهي إليه رحلته، وتتجلىٰ عنده نهاياته كلها، وهو أحد أبرز المعالم التي ينطلق هذا السلوك من تصورها، ويتحرك على ضوئها، بين خطين متباعدين في التصور والفهم والتقييم، متماسين متلاحمين، تصارعاً وتلاطماً، يمثل أحدهما غاية الضلال والشر والرذيلة، والآخر ذروة الهداية

والخير والفضيلة، ويقترب الناس من أحد هـذين السبيلين، بمقدار ما يبتعـدون عن نقيضه، تبعـاً لإدراكهم، أو جهلهم بحقائق الكون الكبرىٰ، وحركته المصيرية المحتومة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[2].

فإذا كان قبل يوم الحساب، يبعث[3] الله ريحاً من اليمن، ألين من الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته[4]. ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق[5]، وهم في

---

(١) سورة الروم: آية ٨.　　(٢) سورة لقمان: آية ٢٩ ـ ٣٠.

(٣) من هنا وحتى نهاية هـذه الفقرة، سأورد النصوص بشيء من الاختصار، ودون وضعها بين أقواس، لتتمشىٰ مع السياق.

(٤) مسلم: ٧٦/١.　　(٥) مسلم: ٢٠٨/٨.

خفة الطير، وأحلام السباع[1]، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فماذا تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ رزقهم، حسن عيشهم[2]، ولا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها، آمن الناس كلهم أجمعون، فيومئذ لا ينفع نفساً إيمانها، لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً[3].

ثم ينفخ في الصور، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[4].

فلا يبقىٰ أحد يسمع صوت نفخ الصور، إلا وضع عنقه على الأرض ميتاً، فعندها تكون القيامة: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾[5].

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ

---

(١) في انعدام تعقلهم، وإسراعهم إلى الشر.

(٢) مسلم: ٨/٢٠١. (٣) صحيح مسلم: ١/٩٥.

(٤) سورة الزمر: آية ٦٨. (٥) سورة الحاقة: آية ١٤ ـ ١٦.

سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾[1].

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾[2].

في ذلك اليوم الراعب المخيف، تبدل الأرض غير الأرض والسموات، فيقبض الله ذو الجبروت الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض[3].

ويكون بين النفختين، أربعون، لا ندري أربعون ساعة، أو يوماً، أو سنة، ثم ينزل الله من السماء ماء، فينبت الناس به، كما ينبت البقل، ولا يبقىٰ من الإنسان شيء إلا ويبلىٰ، إلا عجب الذنب، منه يُركَّب الخلق يوم القيامة[4].

وينفخ في الصور مرة ثانية، بعد أن مات كل الناس: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[5].

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[6].

---

(١) سورة التكوير: آية ١ ـ ٤.
(٢) سورة النازعات: آية ٦ ـ ٩.
(٣) البخاري: ٨/١٩٤.
(٤) مسلم: ٧/٢١٠.
(٥) سورة الزمر: آية ٦٨.
(٦) سورة يسٓ: آية ٥١ ـ ٥٢.

ويكون أول من يفيق بعد النفخة الثانية، نبينا محمداً ﷺ، فيجد موسى آخذاً بجانب العرش[1]. وتحشر الخلائق كلها، من إنس وجن، وطير ووحش، وبهائم ودواب، ويأتي الناس يومهم ذاك، حفاة عراة غرلاً[2]، وأول من يكسىٰ يوم القيامة، إبراهيم خليل الرحمٰن[3].

ويحشر الناس يومها على ثلاث طرائق[4]: راغبين وراهبين، وثلاثة على بعير؛ وأربعة على بعير؛ وعشرة على بعير، ويحشر بقيتهم النار، تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا[5]، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا[6].

ويحشر الكافر يوم القيامة على وجهه، يقول رسول الله ﷺ: أليس الذي أمشاه على رجلين في الدنيا، قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ وقال قتادة: بلىٰ وعزة ربنا[7].

ويأتي المتكبرون يوم القيامة، أمثال الذرِّ، في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في

---

(١) البخاري: ٨/١٩٤.
(٢) غرلاً: بدون ختان.
(٣) البخاري: ٨/١٩٦ ـ ١٩٧.
(٤) آمنين مستبشرين.
(٥) تصحبهم في أوقاتهم كلها.
(٦) البخاري: ٨/١٩٦.
(٧) البخاري: ٨/١٩٦.

جهنم، يسمى بُولُس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقون من عصارة أهل النار، طينة الخبال[1] . وتدنى الشمس من الخلق، حتى تكون منهم كمقدار ميل[2] ، ويكون الناس على قدر أعمالهم في العرق؛ فمنهم من يكون العرق إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً[3] .

ويجيء الله تعالى في ظلل من الغمام والملائكة، ليقضي بين العباد، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[4] .

ويأتي أصناف من العاملين الذين قدموا لأنفسهم من الباقيات الصالحات، فيظلهم الله في ظله، حين لا ظل في الأرض، إلا ظله: الإمام العادل؛ والشاب الذي نشأ في طاعة الله؛ ورجل قلبه معلق بالمساجد؛ ورجلان تحابا في[5] الله:

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم (٨٠٤٠)، من رواية الإمام أحمد، والترمذي، عن ابن عمرو، وحسّنه.

(٢) قال سليم بن عامر: «فوالله ما أدري ما يعني بالميل، أمسافة الأرض؟ أم الميل الذي تكتحل به العين».

(٣) مسلم: ١٥٨/٨.

(٤) سورة البقرة: آية ٢١٠.

(٥) ابتغاء لطاعته ورضوانه.

اجتمعا عليه؛ وتفرقا عليه؛ ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال؛ فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق فأخفى؛ حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً، ففاضت[1] عيناه[2].

ويرد المسلمون حوض رسول الله ﷺ، وبين ناحيتيه كما بين صنعاء والمدينة[3]، آنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها، من شرب منها لم يظمأ، يشخب[4] فيه ميزابان من الجنة، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل[5]. ورسول الله ﷺ قائم عليه، يضرب بعصاه، يذود لأهل اليمن[6]. ويحذر رسول الله ﷺ أمته، فيقول: لا يأتين أحدكم فيُذبُّ عني، كما يُذب البعير الضال، فأقول فيم هذا؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا[7] بعدك. فأقول: سحقاً[8].

وتكون الأرض يوم القيامة، خبزة واحدة، يتكفَّؤها الجبار بيده، كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر؛ نزلاً لأهل الجنة،

---

(١) بكىٰ من خشية الله، حيث لا يراه أحد.

(٢) البخاري: ١/٢٦٦ ـ ٢٦٧. (٣) مسلم: ٧/٧١.

(٤) يسيل فيه. (٥) مسلم: ٧/٦٩.

(٦) مسلم: ٧/٧٠.

(٧) هذا من أشد النذر لأهل المحدثات، التي غيرت دين الله، فليتق الله أقوام يزعمون أنهم يحدثون بدعاً مستحسنة!.

(٨) مسلم: ٧/٦٧.

يـأكلونها ويأكلون لحم ثـور، ولحم حوت، يـأكل من زائـدة كبدهما سبعون ألفاً[1] .

ويشهد الناس ألواناً من العذاب والخزي، تصيب أهل المعاصي:

فيخرج عنق[2] من النار، لـه عينان يبصران، وأذنـان يسمعان، ولسان ينطق يقول: إني وكِّلت[3] بثـلاثة: بكـل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلٰهاً آخر، وبالمصورين[4] .

ويأتي كل صاحب مال، لم يؤذ زكاته، فيمثل له شجاعاً[5] أقرع، له زبيبتان، يطوَّقُهُ[6]، ثم يأخذ بِلهزِمتيه[7]، ثم يقول: أنا كنزك، أنا مالك[8]. وتأتي الإبل والغنم التي لم تؤد زكاتها، على خير مـا كانت[9]، تـطؤه بأظـلافها وأخفـافها، وتنـطحه بقرونها[10].

---

(١) البخاري: ٨/١٩٥ .

(٢) لسان منها.

(٣) بتعذيب ثلاثة أصناف.

(٤) صحيـح الجامـع: ٨٠٥٢، من رواية الإمـام أحمد والـترمذي. وصححه.

(٥) ثعباناً.

(٦) يُجعل حول عنقه كالطوق.

(٧) شدقيه: جانبي فمه.

(٨) البخاري: ٢/٢١٨ .

(٩) أشد ما كانت قوة ونشاطاً وعدداً.

(١٠) البخاري: ٢/٢١٧، باختصار.

وأول من يُدعىٰ يوم القيامة؛ آدم عليه السلام، فتراءى[1] ذريته، فيقال: هـذا أبوكم آدم، فيقـول: لبيك وسعـديك، فيقول: أخرج بعث جهنم من ذريتك. فيقول: يا رب، كم أخرج؟ فيقول: أخرج من كل مـائة، تسعـة وتسعون ـ وفي حديث أبي سعيد: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ـ فذاك حين يشيب الصغير، ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

وقد اشتد هذا الخبر على أصحاب رسول الله ﷺ، حين سمعوه منه، وقالوا: يا رسول الله: أيُّنا ذلك الرجل[2]؟ قال: «أبشروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفٌ، ومنكم رجل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة»، فحمدنا الله وكبرنا[3]، ثم قال: «والذي نفسي بيده، إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم، كمثل الشعرة البيضاء، في جلد الثور الأسود»[4].

ويشتد الكرب على الناس[5]، ويُلهمون لذلك[6]،

(١) تنظر لتراه. (٢) الناجي من كل ألف؟.

(٣) يقول الراوي الصحابي.

(٤) السياق من مجموع حديث أبي هريرة، وحديث أبي سعيد، عند البخاري: ٨/١٩٨.

(٥) في ذلك الموقف العصيب.

(٦) يلهمون طلب الشفاعة فراراً من ذلك الكرب العظيم.

فيقولون: لو استشفعنا على ربنا، حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم عليه السلام، فيقولون: أنت آدم، أبو الخلق، خلقك الله بيده[1]، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، إشفع لنا عند ربك، حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم، فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحي ربه منها[2]، ولكن ائتوا نوحاً، أول رسول بعثه الله.

فيأتون نوحاً عليه السلام، فيقول: لست هناكم، فيذكر خطيئته التي أصاب[3]، فيستحيي ربه منها، ولكن ائتوا إبراهيم، الذي اتخذه الله خليلاً.

فيأتون إبراهيم ﷺ، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته[4] التي أصاب، فيستحيي ربه منها، ولكن ائتوا موسى ﷺ، الذي كلَّمه الله، وأعطاه التوراة.

فيأتون موسى ﷺ، فيقول لست هناكم، ويذكر خطيئته[5] التي أصاب، فيستحيي ربه منها، ولكن ائتوا عيسىٰ، روح الله وكلمته.

(١) تأمل شهادة الناس في ذلك اليوم، حيث تسقط حجب الجهل!.
(٢) وهي أكله من الشجرة التي نهاه الله عنها.
(٣) دعاءه بدعوته التي كانت له، على قومه.
(٤) كذباته الثلاث، وهي في سبيل الله.
(٥) قتله النفس قبل بعثته.

فيأتون عيسى ﷺ، روح الله وكلمته، فيقول: لست[1] هناكم، ولكن ائتوا محمداً ﷺ، عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال رسول الله ﷺ: فيأتوني، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته، وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله، فيقال: يا محمد، إرفع رأسك، قل تُسمع، سل تعطه، إشفع تشفع[2].

وفي حديث أبي هريرة: فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون، وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم، فيأتون آدم يستشفعونه، ثم يأتون نوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، كلهم يقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً، لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، ويذكر كل نبي منهم خطيئته، سوى عيسى عليه السلام، لم يذكر خطيئة، وكل نبي منهم يقول: نفسي، نفسي، حتى يأتون محمداً ﷺ، وينطلق ويقع ساجداً تحت العرش، لله جل وعلا، ويفتح الله عليه من محامده، وحسن الثناء عليه، شيئاً لم يفتحه لأحد قبله، ثم يقال له: يا محمد، إرفع رأسك، سل تعطه، إشفع تشفَّع، فيرفع

(١) ولا يذكر خطيئة.

(٢) صحيح مسلم: ١/١٢٤، من حديث أنس.

رسول الله ﷺ رأسه، فيقول: يا رب، أمتي، أمتي، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك، من لا حساب عليه، من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. ويقول سول الله ﷺ: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة، لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى[1].

ويقول الله تعالى: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت[2].

وفي حديث أبي سعيد: فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه، من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار[3]، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر، وغبَّر أهل الكتاب[4]، فيدعى اليهود، فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا

---

(١) صحيح مسلم: ١/١٢٧ - ١٢٩. مختصراً بتصرف في بعض الألفاظ.

(٢) مسلم: ١/١٢٢، من حديث أبي هريرة.

(٣) مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ سورة الأنبياء: آية ٩٨.

(٤) بقاياهم.

كنا نعبد عزيرٌ بن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا، فاسقنا. فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى النـار، كأنها سراب، يحـطم بعضهـا بعضـاً، فيتسـاقـطون في النـار. ثم يـدعىٰ النصـارى، فيقال لهم: مـا كنتم تعبدون؟ قـالـوا كنـا نعبـد المسيح بن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: مـاذا تبغون؟ فيقـولون: عـطشنا يـا ربنا، فاسقنا، فيشار إليهم: ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم، كأنها سراب، يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار.

حتى إذا لم يبق إلا من يعبد الله، من بر وفاجر، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى، في أدنىٰ صورة من التي رأوه فيها، قال: فما تنتظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد. قالوا يا ربنا، فارقنا الناس في الدنيا، أفقر ما نكون إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئـاً، مرتـين أو ثلاثـاً، حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب. فيقول: هل بينكم وبينه آية تعـرفونـه بها؟ فيقـولون: نعم. فيكشف عن ساقٍ، فلا يبقىٰ من كـان يسجد لله من تلقـاء نفسه، إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقىٰ من كان يسجد اتقاءً ورياء، إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد، خر على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة، فقال: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا.

ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحلّ الشفاعة، ويقولون: سلِّم، سلِّم.

قيل يا رسول الله، وما الجسر[1]؟ قال: دحضٌ مزلَّة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك، تكون بنجد[2]، فيها شويكة يقال لها السعدان.

فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناجٍ مسلَّم، ومخدوشٍ مرسل، ومكدوسٍ في نار جهنم[3].

فإذا كان الحساب، فإنه ليس أحد يحاسب يوم القيامة، إلا هلك، فأما الحساب اليسير، فهو العرض، وليس أحد يناقش الحساب إلا عُذِّب[4].

وأول رجل يدعو به الله للحساب: رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقاريء: ألم أعلِّمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب.

قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار. فيقول الله له: كذبت. وتقول له

(١) أي: ما صفة هذا الجسر؟. (٢) بمرتفعٍ.
(٣) صحيح مسلم: ١/١١٥ ـ ١١٦.
(٤) صحيح البخاري: ٨/٣٠١، بمعناه.

الملائكة: كـذبت. ويقول الله لـه: بل أردت أن يقـال فلان قاريء، فقد قيل ذلك.

ويؤتىٰ بصاحب المال، فيقول الله له: ألم أوسِّـع عليك، حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلىٰ يا رب، قال: فماذا عملت فيـما آتيتـك؟ قـال: كنت أصـل الـرحم وأتصـدق. فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جواد، فقد قيل ذلك.

ويؤتىٰ بـالذي قتـل في سبيل الله[1]، فيقـول الله: فبـماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قتلت. فيقـول الله لـه: كـذبت، وتقـول لــه المـلائكــة: كـذبت. ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جريء، فقد قيل ذلك.

قال رسول الله ﷺ: يا أبا هـريرة، أولئـك الثلاثـة أول خلق الله تسعَّر بهم النار يوم القيامة[2].

وأول ما يحاسب به العبد الصلاة، فإن صلحت، صلح بها سائر عمله، وإن فسدت فسـد سائـر عمله[3]. وأول ما

(١) فيما يظهر للناس.

(٢) صحيح الجامع الصغير: ١٧١٣، من روايـة الترمـذي والحاكم، وصححه.

(٣) صحيح الجامع: ٢٥٧٢، من رواية الـطبراني في الأوسط، والضياء، وصححه.

يقضىٰ بين الناس في الدماء[1].

فيجيء الرجل آخذاً بيد الرجل، فيقول: يا رب هذا قتلني، فيقول الله له: لم قتلته؟ فيقول: قتلته لتكون العزة لك، فيقول: فإنها لي.

ويجيء الرجل آخذاً بيد الرجل، فيقول: أي رب، إن هذا قتلني، فيقول الله: لم قتلته؟ فيقول: لتكون العزة لفلان، فيقول: إنها ليست لفلان. فيبوء بإثمه[2].

ويأتي أقوام لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم:

رجل حلف على سلعة بعد العصر، ليقتطع بها مال امريء مسلم، ورجل حلف على سلعة، لقد أُعطي بها أكثر مما أعطي، وهو كاذب. ورجل منع فضل ماء[3].

والمسبل[4]، والمنان، والشيخ الزاني، والملك الكذاب، والعائل المستكبر، ورجل بايع إماماً، لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وفّىٰ، وإن لم يعطه لم يف[5]. والعاق لوالديه، والمرأة

---

(١) البخاري: ٩/٣.

(٢) صحيح الجامع: ٨٠٢٩، من رواية النسائي، وصححه.

(٣) البخاري: ٩/٢٣٧ - ٢٣٨.

(٤) المسبل إزاره، وهو من زاد في ثوبه على الكعبين.

(٥) صحيح مسلم: ١/٧١ - ٧٢.

المتشبهة بالرجال، والدُّيوث[1].

ولا تزول قدما عبد حتى يُسأل عنْ أربع: عن عمره فيم أفناه؟ وعن علمه ما فعل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟[2].

ويصاح برجل من أمة محمد ﷺ، على رؤوس الخلائق، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجلٍ مدّ البصر[3]، ثم يقول الله تبارك وتعالى: هل تنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، ثم يقول: ألك عذر، ألك حسنة؟ فيهاب الرجل، فيقول: لا. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج له بطاقة، فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة[4].

وتأتي سورة البقرة، وسورة آل عمران، كأنهما غمامتان، أو

(١) صحيح الجامع ٣٠٧١، من رواية الإمام أحمد، والنسائي، والحاكم، عن ابن عمرو، وصححه.
(٢) صحيح الجامع: ٧٣٠٠، الترمذي عن أبي برزة، وصححه.
(٣) فيها سيئاته، كما يشير السؤال بعد هذا.
(٤) صحيح الجامع: ٨٠٩٥، من رواية ابن ماجه، والحاكم، عن ابن عمرو، وصححه.

فرقان من طير صوافٍ، تحاجان عن صاحبهما[1]، تقدمان القرآن وأهله الذين كانوا يعملون به[2].

حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي[3] بيده، ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله، في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة، لإخوانهم الذين في النار، يقولون: ربنا، كانوا يصومون معنا، ويصلُّون، ويحجون، فيقال لهم:

أخرجوا من عرفتم. فتحرَّم صورهم على النار، فيخرجون خلقاً كثيراً، قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا، ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: إرجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خيراً كثيراً، ثم يقولون: ربنا، لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا. ثم يقول: إرجعوا، فمن وجدتم في قلبه نصف دينار من الخير فأخرجوه. فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا، لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً، ثم يقول: إرجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا، لم نذر فيها خيراً[4][5].

---

(١) صاحبهما هو تاليهما، الذي اتبعهما حق الإتباع.

(٢) صحيح مسلم ٢/١٩٧.   (٣) يحلف رسول الله ﷺ.

(٤) وكان أبو سعيد ـ كما في حديثه في مسلم ـ يقول: «إقرؤا إن شئتم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ ﴾».

(٥) صحيح مسلم: ١/١١٦.

وفي حديث جابر رضي الله عنه: ينجو المؤمنون، فتنجوا أول زمرة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، سبعون ألفاً لا يحاسبون، ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء، ثم كذلك، **ثم تحل الشفاعة**، ويشفعون حتى يخرج من النار، من قال لا إلٰه إلا الله، وكان في قلبه من الخير: ما يزن شعيرة، فيجعلون بفناء الجنة، ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء، حتى ينبتوا نبات الشيء في السيل، ويذهب حُراقه[1]، ثم يسأل حتى تجعل له الدنيا، وعشرة أمثالها معها[2].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يُخرجوا من النار، من كان لا يشرك بالله شيئاً، ممن أراد الله أن يرحمه، ممن يقول لا إلٰه إلا الله، فيعرفونهم بأثر السجود، تأكل النار من ابن آدم، إلا أثر السجود، حرَّم الله على النار أن تأكل أثر السجود[3].

وفي حديث أنس رضي الله عنه: يشفع رسول الله ﷺ لأمته، حتى يخرج بشفاعته، من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان، ثم يستشفع فيمن قال لا إلٰه إلا الله[4].

---

(١) أثر الاحتراق في بدنه. (٢) صحيح مسلم: ١/١٢٢.
(٣) صحيح مسلم: ١/١١٢ ـ ١١٣.
(٤) صحيح مسلم: ١/١٢٦ ـ ١٢٧.

وفي حـديث أبي سعيد: فيقـول الله عز وجـل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط، قد عادوا حمـماً، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنـة، يقال لـه نهر الحيـاة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل[1].

ويكفي المسلم واعظـاً، أن يعلم بأن أهـون أهل النـار عذاباً؛ رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل والقمقم[2]. وذلك أهون الناس عذاباً!.

وأن آخر من يدخل الجنة، رجل يخرج من النـار حبواً، فيقـول الله: اذهب فادخـل الجنة. فيـأتيها فيخيـل إليـه أنها ملآى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملآى - ثلاثاً - فيقـول له الله في الثالثة: إذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا، وعشرة أمثالها[3].

ولموضع قدمٍ في الجنة، خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امـرأة من أهـل الجنـة، اطّلعت إلى الأرض، لأضـاءت مـا بينهما[4]، ولملأت ما بينهما ريحاً، ولخمارها خير من الدنيا ومـا فيها[5].

---

(١) صحيح البخاري: ٢٠٨/٨. (٢) صحيح البخاري: ٢٠٨/٨.
(٣) البخاري: ٢١١/٨. (٤) ما بين الأرض والسماء.
(٥) صحيح البخاري: ٢١٠/٨.

وفي وصف حال أهل النار، يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾[1].

وبئس الحال حال من يكون الموت راحة له، فهو في جحيم وسعير دائم، حريق لا نهاية له، وخوف لا أمن معه، ولا بعده، وظمأ لا ريًّ معه. وجوع لا شبع فيه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت. وماذا عن حال أهل الجنة: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾[2].

فإذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار[3]، ثم يذبح، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، ويا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم[4].

وأخيراً: يقول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة:

---

(١) سورة فاطر: آية ٣٦. (٢) سورة هود: آية ١٠٨.

(٣) على هيئة كبش، كما في صحيح مسلم.

(٤) صحيح البخاري: ٨/٢٠٤ ـ ٢٠٥.

يا أهل الجنة، يقولون: لبيك وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضىٰ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً[1].

ويقول الله جل وعلا لأهل الجنة: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة؟ وتنجنا من النار؟ فينكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل[2].

وهكذا يصير الناس إلى دارين، دار نعيم لا بؤس فيه، وأنس لا وحشة فيه، وأمن لا خوف معه، منزه عن الأكدار والأقذار، لا تجوع فيها ولا تعرى، ولا تهرم ولا تأسى، ولا تبرد ولا تضحىٰ، كرامة تلي مسرة، ورضوان من الله يظلل النعيم، ويزيد النفس رضواناً وبشراً، فيها لا عين رأت، ولا نفس عرفت، إلا أسماء لا تلج بك في حقائق الجنان، ومكنونات الفردوس، فما عرف إلا من ذاق!.

وأما الدار الأخرى، فيهون شقاء الدنيا، قياساً إلى عذاب لحظة فيها، يرى أهون أهلها عذاباً، أنهم أشدهم في العذاب،

---

(١) البخاري: ٨/٢٠٥.

(٢) صحيح مسلم: ١/١١٢.

هوان يجلله خزي، وحريق يأكل الجلود والأبشار، كلما نضج جلد، أبـدل مكانـه وعاء لـلألم والمصائب، شرابهم صـديـد ومهل، وروحهم سموم وهلاك، وخطابهم تقريع وهوان. لا يخفف عنهم العـذاب، يومـاً ولا سـاعـة، ولا يقضىٰ عليهم فيستريحوا، وما هم بخارجين من العذاب.

قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبين الله ترجمان، ثم ينظر فلا يرى شيئاً قدّامه، ثم ينظر بين يديه، فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتق النار ولو بشق تمرة. ثم قال: اتقوا النار، اتقوا النار، اتقوا النار، حتى ظننا أنه ينظر إليها. ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»[1].

ذلك عرض سريع سريع، لأهم حقـائق اليوم الآخـر، الدار والمقر، نقف اليوم فيها عند حدود الكلمات، ومع ظلال الخيال القاصر عن درك المكنون، ويكفي أن نعلم، بأن نعيم الدنيا بأسرها، لا يقاس بلحظة من لحظات دار الشقاء الأبدي السرمدي. وأن شقاء الدنيا، لا يساويه غمسة واحدة في نعيم الخلد وملك لا يبلىٰ، ولا تزيده الدهـور، إلا رواء ورونقاً، وبهاء وبُلهنية.

(١) صحيح البخاري: ٨/٢٢٠.

ولا يزال المؤمن بخير، ما ذكر يومه هذا، ولا تزال كفته راجحة ما استحضره في حسه، عند القول والعمل، فإذا نسي أو غفل، أو ران على قلبه حجاب الركون إلى الأرض، فخلا قلبه من الذكر والمراقبة، وأصبحت عواطفه بعيدة عن ضبط الخلق، وتوجيه السلوك، رغبة ورهبة، فقد طاش ميزانه، وآذنت خسارته، وباب التوبة مفتوح بعد، لمن ذكر وأناب، وأحسن استدراك ما فرط منه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝١٦ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

فلا بد أن يضع المسلم حقائق هذا اليوم وحوادثه، نصب عينيه، وملء حسه وقلبه، حتى لا يضعف التقوى في عمله، ولا تغشاه غواشي الوهن والفساد.

ومن الحقائق التي أخبر عنها الوحي الإلهي، في ذلك اليوم:

١ ـ أن الناس ينبتون بعد النفخة الثانية، من عجب الذنب، كما ينبت البقل والزرع.

---

(١) سورة الحديد: آية ١٦ ـ ١٧.

٢ ـ أن الناس يحشرون، أول ما يحشرون، حفاة عراة غرلاً، والخوف والهول أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض.

٣ ـ أن المتكبرين يأتون مثل الذر[1]، والكافر يحشر ماشياً على وجهه، بقدرة الله الذي أمشاه في الدنيا على رجلين.

٤ ـ أن الله سبحانه، يجيء يوم القيامة ليفصل بين العباد، ويقضي بينهم بالحق، ويكلم كلاً منا، بغير ترجمان، ولا واسطة، وأننا نرى ربنا في القيامة، وتكون العلامة بيننا وبينه، أن يكشف ساقه، ويسجد له كل مؤمن.

٥ ـ أن مصير بقايا أهل الكتاب، من يهود ونصارى، الذين يعبدون المسيح وعزير، كلهم إلى النار.

٦ ـ أن لرسول الله ﷺ حوضاً، تشرب منه أمته، ويُذبُّ عنه، من أحدث في الإسلام ما ليس فيه، أو بدَّل منه.

٧ ـ أن صحائف الأعمال، توضع في كفة الميزان حقيقة، فتطيش أو ترجح.

٨ ـ أن المسلمين يمرون فوق الجسر، فمسلم أو مصاب مرسل، أو مأخوذ إلى النار، وأن رسول الله ﷺ يشفع، والمؤمنون يشفعون، والملائكة تشفع، والرب جل وعلا يخرج من شاء من النار برحمته، حتى يخرج منها من قال لا إله إلا الله صادقاً، وإن لم يعمل خيراً قط. كما

(١) النمل الصغار.

خلَّص الله صاحب البطاقة، الذي لم تكن له حسنة، سوى قوله لا إله إلا الله، محمداً رسول الله.

٩ ـ أن الجنة والنار، باقيتان لا يخرج منهما أهلهما، ولا تفنيان، فأهل الجنة من الموحدين، خالدون فيها أبداً، وأهل النار من الكفار مقيمون لا يبرحون.

١٠ ـ أن الله يتجلى لأهل الجنة حتى ينظرون إليه، وذلك أحب إليهم من كل ما أعطوا من النعيم، ويحل عليهم رضوانه، فلا يسخط على أحد منهم بعدها أبداً.

١١ ـ أن القرآن يأتي يوم القيامة، محاجاً عن أهله الذين حملوه، وأخذوه بحق.

١٢ ـ أن المرائين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، وأول ما يحاسب عليه العبد الصلاة. فإن صلحت، صلح عمله، وإن فسدت فسد عمله.

تاسعاً: الإيمان بالقدر خيره وشره:

١ ـ معنى القدر:

القدر هو المقدار المضبوط على وفق الحكمة التامة.

قال الله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾[١].

وقال جل وعلا: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[٢].

فكل ما خلق الله، قد جعل له عز وجل قدراً محكماً، حتى لا ترى في خلق الرحمن من تفاوت، أو قصور أو عيب، وحتى يرتد البصر عن هذا الخلق، عياً وعجزاً، ويستسلم لآياته المعجزة الباهرة. ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾[٣].

والقدر أيضاً: القضاء.

---

(١) سورة الملك: آية ٣ ـ ٤. (٢) سورة الطلاق: آية ٣.

(٣) سورة طه: آية ٤٠.

قال الله سبحانه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾[1].

أي: ذهب مغاضباً لقومه، فظن أن الله لن يقضي عليه سوءاً أو شدة وضيقاً، ولن يقدره.

وقال تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾[2].

أي: على أمرٍ قد قضاه الله، وفرغ منه.

وقال بعض السلف: القدر قدرة الله.

وقال الإمام البيهقي: «القدر إسم لما صدر مقدَّراً عن فعل القادر، يقال: قدَّرت الشيء، وقدرته، بالتشديد والتخفيف، فهو قدَرٌ. أي: مقدور، ومقدَّر.

كما يقال: هدمت البناء، هو هدمٌ، أي: مهدوم. وقبضت الشيء، فهو قبضٌ، أي: مقبوض»[3].

وقال في لسان العرب: «قال اللحياني: القَدَر الإسم، والقدْر المصدر»[4].

والقدر كذلك معناه الحكم.

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٧.
(٢) سورة القمر: آية ١٢.
(٣) الاعتقاد: ١٣٢.
(٤) لسان العرب: ١١/٥٦.

قال الله عز شأنه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[1].

وقال ابن منظور، عن صاحب المخصَّص: «القَدْرُ والقدَر: القضاء والحكم. وهو ما يقدِّره الله عز وجل من القضاء، ويحكم به من الأمور. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ أي: الحكم. كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[2].

وذكر الإمام المفسر ابن كثير: «وقال قتادة وغيره: تقضىٰ فيها الأمور، وتقدَّر الآجال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[3].

والقدْر: الضيق.

قال الراغب: «وقدرتُ عليه الشيء: ضيَّقته. كأنما جعلته بقدْر، بخلاف ما وصف بغير حساب، قال: ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ أي: ضُيِّق عليه»[4].

وفعل الله تعالى، هو منه بغير حساب، وليس عليه في فعله قدرٌ أو مقدار، فهو سبحانه رب الأقدار والمقدورات،

---

(١) سورة القدر: آية ١.   (٢) لسان العرب: ١١/٥٥.

(٣) تفسير ابن كثير: ٤/٥٣١.

(٤) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: ٣٩٦.

المتصرف فيها بمشيئته. وأما فعله لعبده، فهو قدر لا يملك العبد الخروج عنه. وقال الراغب: «فتقدير الله الأشياء، على وجهين:

أحدهما بإعطاء القدرة، والثاني بأن يجعلها على مقدار مخصوص، ووجه مخصوص، حسبما اقتضت الحكمة[1].

وذلك أن فعل الله ضربان: ضرب أوجده بالفعل، ومعنى إيجاده بالفعل، أن أبدعه كاملاً دفعة واحدة، لا تعتريه الزيادة والنقصان، إلى أن يشاء، أو يفنيه، أو يبدِّله، كالسموات وما فيها.

ومنها[2] ما جعل أصوله موجودة بالفعل، وأجزاؤه بالقوة[3]، وقدَّره على وجه، لا يتأتىٰ منه غير ما قدَّره فيه، كتقديره في النواة، أن ينبت منها النخل، دون التفاح والزيتون، وتقدير منيٍّ الإنسان، أن يكون منه الإنسان، دون سائر الحيوانات»[4].

ومن هذه التقدير (بالإمكان)، الذي ذكره الراغب الأصفهاني رحمه الله، تقدير خاص، فإذا كان من التقدير

---

(١) حكمة الله.

(٢) وهو النوع الثاني من الأفعال.

(٣) يقصد الطاقة الكامنة في المخلوقات.

(٤) مفردات الراغب: ٣٩٥.

العام، أن تنبت النواة نخلة، ويكون من مني الإنسان، إنساناً دون غير ذلك، فإن ثمة تقدير أخص منه، كأن يقدِّر الله لمني إنسان، أن لا يكون منه ولد البتة، أو يكون منه ذكراناً دون الإناث، أو العكس، وأن يقدر الله أن يكون من الحبة سبعة سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، أو أقل من ذلك أو أكثر. قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[1].

٢ ـ الإيمان بالقدر:

والإيمان بالقدر، أصل من أصول الإيمان، وركن من أركانه، لا يقبل الله من رجل عملاً، إلا أن يؤمن به، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم.

قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[2].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «جاء مشركو قريش، يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر، فنزلت: وذكر الآيتين»[3].

---

(١) سورة الشورى: آية ٥٠. (٢) سورة القمر: آية ٤٨ ـ ٤٩.

(٣) صحيح مسلم: ٤/٢٠٤٦.

وفي حديثنا هـذا، حديث جـبريل عن يحيى بن يَعمُـر، قال: «كان أول من قال في القدر[1] بالبصرة: معبد الجهني. فانطلقت أنا وحُميد بن عبدالرحمٰن حاجَّين أو معتمرين، فقلنا لو لقينا أحداً من أصحـاب رسول الله ﷺ، فسـألناه عـما يقول هؤلاء في القدر، فوفِّق لنا عبدالله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي؛ أحدنا عن يمينه؛ والآخر عن يساره، فظننت أن صـاحبي سيكل الكـلام إليَّ، فقلت: أبا عبـدالرحمٰن! إنـه قـد ظهـر قبلنـا نـاس، يقـرأون القـرآن، ويتقفَّرون[2] العلم ـ وذكر من شأنهم[3] ـ وأنهم يزعمون أنه لا قدر، وأن الأمر أُنُفٌ[4].

قال: فإذا لقيت أولئك؛ فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبدالله بن عمر: لو أن لأحدهم مثل أحدٍ ذهباً، فأنفقه، ما قبل الله منه، حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني أبي؛ عمر بن الخطاب؛ قال[5]: وذكر حديث

---

(١) يعني أول من قـال فيه مـا يخالف بـه الأمة، حيث نفى مـا أثبته الناس.

(٢) يطلبونه ويجمعونه.

(٣) ما بين معترضتين، من كلام أحد الرواة عن يحيى. يعني أن يحيى وصفهم بالفضل والاجتهاد.

(٤) مستأنف مبتدؤ دون تقدير من الله، أو علم منه به.

(٥) صحيح مسلم: ١/٣٦ ـ ٣٧.

جبريل؛ وفيه: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»[(١)].

وعن ابن[(٢)] الديلمي قال: «وقع في نفسي شيء من هذا القدر، خشيت أن يفسد عليَّ ديني وأمري، فأتيت أبيّ بن كعب، فقلت: أبا المنذر، إنه قد وقع في نفسي شيء من هذا القدر، فخشيت على ديني وأمري، فحدثني بشيء من ذلك، لعل الله أن ينفعني به. فقال: (لو أن الله عذَّب أهل سماواته، وأهل أرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان لك مثل جبل أحد ذهباً، أو مثل جبل أحد تنفقه في سبيل الله، ما قُبل منك حتى تؤمن بالقدر، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وأنك إن مت على غير هذا دخلت النار، ولا عليك أن تأتي أخي عبدالله بن مسعود فتسأله).

فأتيت عبدالله، فسألته، فذكر لي مثل ما قال أبيّ، وقال لي: (لا عليك أن تأتي حذيفة) فأتيت حذيفة، فسألته، فقال مثل ما قالا، وقال: (ائت زيد بن ثابت فاسأله). فأتيت زيد بن ثابت، فسألته، فقال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: وذكر مثل قول أبيّ، من حديث رسول الله ﷺ)[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم: ١/٣٦ - ٣٧.
(٢) عبدالله بن فيروز الديلمي، من كبار التابعين. التقريب ١/٤٤٠.
(٣) صحيح سنن ابن ماجه: ١/١٩، وصححه.

وما سقته لك من نصوص الكتاب والسنة، ثم أقوال فضلاء الصحابة؛ يدلك على أن الإيمان بالقدر، أصل من أصول الإيمان.

٣ ـ مراتب الإيمان بالقدر:

وقد ذكر الإمام ابن قيم الجوزية، في كتابه: «شفاء العليل»، أربع مراتب للإيمان بالقدر، من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقدر.

فالمرتبة الأولى: أن نؤمن أن الله سبحانه، علم بالأشياء قبل كونها وخلقها.

وساق أدلة على وجوب الإيمان بعلم الله السابق على الخلق، منها قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١). وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ (٢).

---

(١) سورة البقرة: آية ٣٠. (٢) سورة لقمان: آية ٣٤.

وقول رسول الله ﷺ في الأطفال الذين يموتون صغاراً: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[1]. وعزاه للصحيحين. وقد توسع في الاستدلال رحمه الله.

والمرتبة الثانية: أن نؤمن أن الله كتب الأشياء قبل خلقها.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[2].

وعن عبدالواحد بن سليم، قال: «قدمت مكة، فلقيت عطاء بن أبي رباح، فقلت: (يـا أبا محمـد، إن أهل البصرة يقولون في القدر). قال: (يا بني، أتقرأ القرآن؟) قلت: (نعم) قال: (فاقرأ الزخرف) قال فقرأت: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾. قال: (أتدري ما أم الكتاب؟) قلت: (الله ورسوله أعلم). قال: (فإنه كتاب كتبه الله قبل أن يخلق السماء، وقبل أن يخلق الأرض، فيه: أن فرعون من أهل النار، وفيه: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾»[3].

وفي الحديث النبوي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إن

---

(١) صحيح مسلم: ٢٠٤٨/٤. (٢) سورة الزخرف: آية ٣، ٤.
(٣) صحيح الترمذي: ٢٢٨/٢.

أول شيء خلقه الله القلم، وأمره أن يكتب كل شيء يكون»[1].

وهو نصٌّ في أن الله سبحانه، كتب في الذكر المحفوظ كل شيء، قبل خلقه وتكوينه.

وجاء من حديث عمران بن حصين مرفوعاً عند البخاري: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السمٰوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء»[2]. وفي حديث عبدالله بن عمرو: «كتب الله مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السمٰوات والأرض، بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء»[3].

المرتبة الثالثة: الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

فمشيئة الله تعالى، شاملة لكل ما خلق، وهذه المشيئة المطلقة، خاصة به، وليست لأحد من خلقه، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[5].

---

(١) أخرجه الألباني في الصحيحة: ١/٤٧.

(٢) فتح الباري: ١٣/٤١٥. (٣) مسلم: ٨/٥١.

(٤) سورة القصص: آية ٦٨. (٥) سورة الكهف: آية ٣٩.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[1].

قال الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله: «وزعموا[2] أن الله عز وجل يشاء ما لا يكون، ويكون ما لا يشاء، خلافاً لما أجمع عليه المسلمون، من أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ورداً لقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فأخبرنا أنا لا نشاء شيئاً، إلا وقد شاء الله أن نشاءه»[3].

وقال الشافعي رحمه الله: «المشيئة إرادة الله، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، فأعلم خلقه، أن المشيئة له، دون[4] خلقه، وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء الله»[5].

وقال ابن القيم: «وهذه المرتبة، قد دل عليها إجماع الرسل، من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر عليها خلقه، وأدلة العقول

---

(١) سورة الإنسان: آية ٣٠. (٢) القدرية.

(٣) الإبانة عن أصول الديانة: ١٢.

(٤) المشيئة المنفية عن العباد، هي المشيئة الذاتية، المستقلة بنفسها عن المؤثرات الخارجية. خلافاً للمشيئة التي تقوم بالعبد، بمشيئة الله. فالإمام يثبتها له، كما هو قول أهل السنة.

(٥) كتاب «الاعتقاد» للبيهقي: ١٥٧.

والعيان[1]، وليس في الوجود موجب ومقتضٍ؛ إلا مشيئة الله وحده، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، هذا عموم التوحيد، الذي لا يقوم إلا به، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم، مجمعون على أنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»[2].

المرتبة الرابعة: الخلق.

فنؤمن أن الله تعالى خالق كل شيء، العامل وعمله، وما من خالق إلا الله، يخلق أفعال العباد، أو يخلق الشر، كما تقول بعض الفرق، مشابهة لقول الثنويين، إذ يثبتون خالقاً يخلق النور والخير، وخالقاً آخر ـ بزعمهم ـ يخلق الظلمة والشر.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[3].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[4].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[5].

وقال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري: «وقال مكي بن أبي طالب في إعراب القرآن له: (قالت المعتزلة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ موصولة، فراراً من أن يقروا بعموم الخلق لله تعالى، يريدون أنه خلق الأشياء التي تنحت منها الأصنام، وأما

---

(١) المشاهدة.
(٢) شفاء العليل: ٨٠.
(٣) سورة الرعد: آية ٦.
(٤) سورة الفرقان: آية ٢.
(٥) سورة الصافات: آية ٩٦.

الأعمال والحركات، فإنها غير داخلة في خلق الله، وزعموا أنهم أرادوا بذلك، تنزيه الله عن خلق الشر، ورد عليهم أهل السنة، بأن الله تعالى خلق إبليس، وهو الشر كلُّه، وقال تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، فأثبتّ أنه خلق الشر، وأطبق القراء، حتى أهل الشذوذ، على إضافة شر، إلى: ما، إلا عمرو بن عبيد، رأس الاعتزال، فقرأها بتنوين ليصحح مذهبه، وهو محجوج بإجماع من قبله على قراءتها بالإضافة. قال: وإذا تقرر أن الله خالق كل شيء، من خير وشر، وجب أن تكون ما: مصدرية. والمعنى: خلقكم وخلق أعمالكم»[1].

وقال الحافظ: «قال البخاري[2]: (والقرآن كلام الله غير مخلوق). ثم ساق الكلام على ذلك، إلى أن قال: (سمعت عبيدالله بن سعيد يقول: سمعت يحيى بن سعيد القطان يقول: ما زلت أسمع أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة. قال البخاري: حركاتهم وأصواتهم وأكسابهم وكتابتهم مخلوقة»[3].

ثم قال: «ثم ساق حديث حذيفة رفعهُ (إن الله يصنع كل صانع وصنعته) وهو حديث صحيح»[3].

---

(١) فتح الباري: ١٣/ ٥٣٩. (٢) في جزء خلق أفعال العباد.
(٣) فتح الباري: ١٣/ ٥٠٧.

فالحديث الذي ذكره الحافظ ابن حجر، وصححه، يفسر الآية، ويبين أن المراد منها: أن الله خلق كل عامل وعمله.

ومن أحسن ما يرد به على مزاعم المعتزلة في الآية، هذا الحديث، وما ذكره الحافظ في الفتح[1] عن السهيلي، وخلاصته:

أن أفعال العباد لا تتعلق بالأجسام إيجاداً، فلا يقال: صنعت جملاً، ولا عملت حجراً ولا شجراً، فمن قال: أعجبني ما عملت، فإنما أراد عمله وصنيعه الذي يقدر عليه.

وعلى ذلك، فقول المعتزلة في الآية: أن الله خلق الكفار، وخلق الأحجار التي ينحتها أولئك، دون أعمالهم: قول باطل لأنهم لم يعملوا هذه الأحجار، ولا يمكن أن يعملوها، فلزم أن أعمالهم مخلوقة. وهم إنما عملوا صورها بالنحت. وإنما عبدوا أشكالها وصورها التي عملوها. والآية جاءت منكرة عبادة الكفار لتلك الأصنام، على عجزها عن الخلق وغيره، فلو كانت أعمال الكفار ونحتهم، مخلوقة لهم، على فهم المعتزلة للآية، لأشركتهم مع الله في صفة الخلق، ولما كان في الآية من حجة على إبطال شركهم، فتأمل.

وفي الآية المذكورة مع ذلك، إثبات الفعل للعبد.

---

(١) فتح الباري: ١٣/٥٣٨.

٤ ــ معنى الإيمان بالقدر:

وجماع الإيمان بالقدر، أن نعلم يقيناً، أن الله تعالى كتب ما هو كائن، قبل أن يخلق الخلق، وقضاه ثم خلقه كما يشاء سبحانه، وأن الناس يعملون على ما قضاه الله، وجفت به الأقلام، وكلاً ميسر لما خلق له، فأهل الشقاوة، ميسرون لعمل الشقاوة، وأهل السعادة ميسرون لعمل السعادة.

فأعمال الناس كلها، تكون بمشيئة الله وإذنه، ولو شاء ربك ما فعلوه، ولو شاء لما اقتتلوا، ولو شاء لما كفروا، ولو شاء لجعل الناس أمة واحدة. ولو شاء لآتى كل نفس هداها وتقواها.

عن أبي الأسود الدِّئليِّ، قال لي عمران بن حصين: (أرأيت ما يعمل الناس اليوم، ويكدحون فيه، أشيء قضي عليهم، ومضىٰ عليهم من قدر سبق، أو فيما يُستقبَلون به، مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم، ومضى عليهم. قال: أفلا يكون ذلك ظلماً؟.

قال: ففزعت من ذلك فزعاً شديداً. فقال لي: إني لم أرد بما سألتك، إلا لأحزُر[1] عقلك. إن رجلين من مزينة، أتيا رسول الله فقالا: يا رسول الله، أرأيت ما يعمل الناس اليوم،

(١) اختبر علمك.

ويكـدحون فيـه؟ أشيء قضي عليهم، ومضى فيهم من قـدر سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم، وثبتت الحجة عليهم؟.

فقـال ﷺ: «لا بـل شيء قضي عليهم، ومضىٰ فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[1].

فالإنسان يعمل بما قضىٰ الله في كتابه، وما ألهمه من تقوى وتقوى. وهذا يؤكده الحديث التالي:

عن عمـران بن الحصين: (قـال رجل: يـا رسـول الله، أيعرف أهل الجنـة من أهل النـار؟ قال: «نعم» قـال: ففيم يعمل العاملون قـال: «كل يعمـل لما خلق لـه، أو لما ييسر له»[2].

وعن جابر، قال: (جاء سراقة بن مالك بن جعشم قال: يا رسول الله: بيِّن لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم، أفيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير؟ أم فيما نستقبـل؟ قال: «لا بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير» قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه، فسألت: ما قال؟ فقال: «إعملوا فكل ميسر»)[3].

(١) صحيح مسلم: ٢٠٤١/٤.   (٢) صحيح البخاري: ٨/ ٢٢٠.
(٣) مسلم: ٤/ ٢٠٤٠ ـ ٢٠٤١.

وفي هذا الحديث، وحديث عمران الذي سبقه، ورد من قول النبي ﷺ عبارتان متقاربتان:

قال ﷺ في حديث عمران: «لا بل شيء قضي عليهم» وجاء في حديث جابر: «لا بل فيما جفت به الأقلام».

والعبارتان تؤكدان معنى واحداً، أن الناس يعملون فيما قدّره الله، وجفت به الأقلام. وهما تنفيان أيضا ما سوى هذا الفهم، مما جاء في سؤال السائلين، وهذا النفي مفهوم من قول النبي ﷺ: لا بل ومعناه نفي أن يكون الناس يستأنفون العمل، وتأكيد لجريان العمل، على ما كتبه الله وقدره عليهم.

وهذا المعنى تجده أيضاً في الحديث التالي: «يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفّت الصحف»[1].

فأعمال الناس تبدأ عندما كتبه الله، وتنتهي عنده.

(١) صحيح الجامع الصغير: ٧٩٥٧، وعزاه للمسند، والترمذي، والحاكم وغيرهم، وصحّحه.

وعن عمرو بن العاص، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه كيف يشاء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك»[1].

٥ ـ الهداية والمشيئة:

لقد هدى الله الناس جميعاً، مؤمنهم وكافرهم، هداية تعليم وإرشاد وبيان. قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[2].

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[3].

وهذه الهداية مناط للتكليف، وهي متممة للاستطاعة الشرعية:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾[4].

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[5].

واختص من علم منه الأهلية بزيادة فضل وإعانة، آمن بها، ويسره للهدى والتقوى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[6].

---

(١) صحيح مسلم: ٢٠٤٥/٤. (٢) سورة الليل: آية ١٢.
(٣) سورة الإنسان: آية ٣. (٤) سورة الطلاق: آية ٧.
(٥) سورة الإسراء: آية ١٥. (٦) سورةالنور: آية ٢١.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ (٧) فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[1].

وهذا الحال من المؤمن الذي أراد الله هدايته، مخالف لحال الكافر، إذ لم يجعل الله له مثل الإلهام الذي جعله للمؤمن بل هو كما قال عنه سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[2].

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ (٢١) ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ (٢٢) وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾[3].

فهؤلاء قد سمعوا السمع الذي هو مناط التكليف، وبذلك استحقوا اللوم والعقوبة، إلا أنهم لم يسمعوا السمع

---

(١) سورة الحجرات: آية ٧، ٨. (٢) سورة الأنعام: آية ١٢٥.

(٣) سورة الأنفال: آية ٢١ - ٢٣.

الذي هو سبب الاهتداء للإيمان، وبذلك أعرضوا عن الهدى، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

وهؤلاء القوم، جاءتهم هداية التعليم والبيان، من رسولهم، إلا أنهم فضلوا ما هم فيه من الجهل، على الحق الذي جاءهم، فجاءهم العذاب الأليم بكفرهم؛ الذي اختاروه بإرادتهم.

والقدرية[2] على اختلاف أقوالهم وأسمائهم، يرون أن معونة الله للكافر، مثل معونته للمؤمن، وأن الله تعالى قد آتىٰ كل نفس هداها، وهم بذلك يخالفون الكتاب والسنة، إذ فرق القرآن بين حال من حقت عليه الضلالة، فالله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، وبين حال من أراد له الهداية، فهو يحبب إليه الإيمان، ويزينه في قلبه، ويقوي دواعيه، ويصرف عنه موانعه. فأمر الإيمان متعلق بمشيئة الله، وإذنه القدري، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا

---

(١) سورة فصلت: آية ١٧.

(٢) القول بنفي القدر، التزمته المعتزلة على اختلاف فرقها، ثم سرى منهم إلى الفكر الإسلامي المعاصر.

كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(١).

ولو شاء ربك أن يؤمن الناس كلهم، لما علق حصول الإيمان على الإذن القدري، ولو شاء لآتى كل نفس إيمانها وهداها: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾(٢).

ولكن منع من ذلك، ما سبق من مشيئة الله وحكمة، ومن قدر حكيم، يعلم الله حكمته، وقد لا نعلمها.

٦ ـ الاستطاعة:

ويراد بها أحد أمرين، الأول: الإستطاعة الشرعية، وتتحقق بوجود القدرة على الفعل، من علم به، وسلامة للأعضاء، ووجود للمتطلبات، كما في قول الله: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾(٣).

وهذه الاستطاعة شرط في التكليف. وكل مخاطب بالإسلام فهو مستطيع بهذا المعنى.

الثاني: الاستطاعة القدرية، وهي التي يتم بها حصول

---

(١) سورة يونس: آية ٩٩ ـ ١٠٠. (٢) سورة السجدة: آية ١٣.
(٣) سورة آل عمران: آية ٩٧.

الفعل، فهذه ليست شرطاً في التكليف، ومن علم الله أنه لا يستجيب لأمره، فهذه الاستطاعة ليست ثابتة له، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾[1].

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[2].

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكذا تنازعهم في العبد، هل هو قادر على خلاف المعلوم؟ فإن أُريد بالقدرة: القدرة الشرعية، التي هي مناط الأمر والنهي، كالاستطاعة المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾؛ فكل من أمره ونهاه: فهو مستطيع بهذا الاعتبار، وإن علم أنه لا يطيعه.

---

(١) سورة هود: آية ١٩، ٢٠.

(٢) سورة الكهف: آية ١٠٠، ١٠١. (٣) سورة الكهف: آية ٢٨.

وإن أُريد بالقدرة: القدرة، التي لا تكون إلا مقارنة للفعل، فمن علم أنه لا يفعل الفعل، لم تكن هذه القدرة ثابتة له»[1].

وكتب ابن قيم الجوزية في كتابه: «شفاء العليل» مناظرة بين سني وقدري، تصور حجج الفريقين وأقوالهم، أقتطف منها التالي: «قال القدري: فما تقول أنت أيها السني في الفعل الأول إذا لم يكن جزاء، فما وجهه؟ وأنت ممن يقول بالحكمة والتعليل، وتنزيه الرب عن الظلم الذي هو ظلم، لا ما يقوله الجبري، إنه الجمع بين النقيضين؟.

قال السني: لا يلزمني في هذا المقام بيان ذلك، فإني لم أنتصب له، إنما أنتصب لإبطال احتجاجك بالآية لمذهبك الباطل، وقد وفيت به، ولله في ذلك[2] حكم وغايات محمودة، لا تبلغها عقول العقلاء، ومباحث الأذكياء، فالله سبحانه إنما يضع فضله وتوفيقه وإمداده في المحل الذي يصلح له، وما لا يصلح له من المحالّ، يدعه غفلاً فارغاً من الهدى والتوفيق، فيجري مع طبعه الذي خلق عليه: ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون.

قال القدري: فإذا كان الله سبحانه قد أحدث فيهم تلك

---

(١) مجموع الفتاوى: ٨/١٣٠. (٢) في فعل العبد الأول.

الإرادة والمشيئة المستلزمة لوجود الفعل، كان ذلك إيجاداً منه سبحانه لذلك فيهم، كما أوجد الهدى والإيمان في أهله.

قال السني: هذا معترك النزال، وتفرق طرق العالم، والله سبحانه أعطى العبد مشيئة وقدرة تصلح لهذا ولهذا، ثم أمد أهل الفضل بأمور وجودية، زائدة على ذلك المشترك، أوجب له الهداية والإيمان، وأمسك ذلك الإمداد عمن علم أنه لا يصلح له، ولا يليق به، فانصرفت قوى إرادته ومشيئته إلى ضده، اختياراً منه ومحبة، لا كرهاً واضطراراً.

قال القدري: فهل كان يمكنه إرادة ما لم يُعَن عليه، ولم يوفق له بإمداد زائد على خلق الإرادة؟.

قال السني: إن أردت بالأمكان أنه يمكنه فعله لو أراده فنعم، هو ممكن بهذا الاعتبار، مقدور له، وإن أردت أنه ممكن وقوعه، بدون مشيئة الرب وإذنه، فليس يمكن، فإنه ما شاء الله كان ووجب وجوده، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده.

قال القدري: فقد سلمت حينئذ أنه غير ممكن للعبد، إذا لم يشأ الله منه أن يفعله، فصار غير مقدور للعبد، فقد عوقب على ترك ما لا يقدر على فعله.

قال السني: عدم إرادة الله سبحانه للعبد ومشيئته أن يفعل، لا يوجب كون الفعل غير مقدور له، فإنه سبحانه لا

يريد من نفسه أن يعينه عليه، مع كونه أقدره عليه. ولا يلزم من إقداره عليه وقوعه، حتى توجد منه إعانة أخرى، فانتفاء تلك الإعانة، لا يخرج الفعل عن كونه مقدوراً للعبد، فإنه قد يكون قادراً على الفعل، لكن يتركه كسلاً وتهاوناً، وإيثاراً لفعلٍ ضدّه، فلا يصرف الله عنه ترك الواقع، ولا يوجب عدم صرفه كونه عاجزاً عن الفعل، فإن الله سبحانه يعلم أنه قادر عليه، بالقدرة التي أقدره بها، ويعلم أنه لا يريده مع كونه قادراً عليه، فهو سبحانه، مريدٌ له[1] ومنه الفعل، ولا يريد من نفسه إعانته وتوفيقه، وقطع هذه الإعانة والتوفيق، لا يخرج الفعل عن كونه مقدوراً له، وإن جعلته غير مراد[2]، وسر المسألة: الفرق بين تعلق الإرادة بفعل العبد، وتعلقها بفعله هو سبحانه بعده، فمن لم يحط معرفة بهذا الفرق، لم يكشف له حجاب المسألة»[3].

نعلم مما سبق: أن الأيمان بالقدر، إيمان بقدرة الله تعالى، فهو أصل من أصول الإيمان، لا يقبل الله عملاً من عامل، حتى يؤمن به، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فما شاء الله وقدّر كان، وما لم يشأ لم يكن، ولو حاولته الأمة.

---

(١) إرادة شرعية غير قدرية. (٢) قدراً وخلقاً.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل.

أن الله قدّر الأقدار وقضاها، قبل خلق الخلائق، وهو خالق العباد، وأفعالهم، من خير أو شر، أو هداية أو ضلال، وهو يعاقب على المعاصي والكفر، ولا يرضاه، كما يثيب على الطاعة ويحبها.

وللعبد فعل حقيقي، وإرادة واختيار، وهي مسبوقة بإرادة الله وخلقه وتقديره. فأفعاله تجري باختياره، دون إكراه أو قسر، فمن أراد الله له الهداية، أعانه عليها، ويسرها له، ومن لم يردها له، تركه ليختار الضلالة، بملء اختياره ومشيئته.

فالله تعالى يهدي من يشاء حقيقة، ويضل من يشاء لا مجازاً، فالله الهادي، والعبد مهتد، والعبد ضال، والله يضله، والله سبحانه لم يؤت كل نفس تقواها وهداها، بل أعان من علم منه الأهلية على الاهتداء، وخذل من علم أنه لا يصلح ولا يهتدي، وفي ذلك كله حكمة بالغة.

وثمة أمر ينبغي التنبيه إليه: أن الله سبحانه، فيما أنزله وأوحاه إلى نبيه، حجب عن الخليقة أشياء من العلم، لعلمه بما في معرفتها من الضرر عليهم، فطوىٰ عنا وقت الساعة، وساعة الموت، كما حجب عنا أصوات المعذبين في قبورهم. وقد جاءت نصوص الكتاب والسنة، تبين لنا حقيقة الإيمان بالقدر، وتفصل واجباته، ثم طوى ربنا جل وعلا عن عباده سر القدر، ونهىٰ عن الخوض فيه بغير علم، قال

رسول الله ﷺ: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا»[1].

وقد خرج رسول الله ﷺ على بعض أصحابه، وهم يتنازعون في القدر، فغضب حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما فقيء في وجهه حب الرمان، فقال: «أبهذا أمرتم؟ أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تتنازعوا فيه»[2].

وفي رواية ابن ماجه: «بهذا أمرتم؟ أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلكت الأمم قبلكم»[3].

فكل ما جاء به الكتاب والسنة من شأن القدر، يجب التسليم له، ويتعين الإيمان به، والوقوف عند حدوده، إذ الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان، وركيزة من ركائز التصور الإسلامي للكون وما عدا ذلك من الخوض في شأن القدر بغير علم، وضرب آيات القرآن، وأحاديث رسول الله ﷺ، بعضها ببعض، فهو ما نهى عنه

---

(١) صحيح الجامع الصغير (٥٤٥) وعزاه للطبراني في الكبير، وابن عدي، وصححه.

(٢) صحيح سنن الترمذي: ٢/٢٢٣.

(٣) صحيح سنن ابن ماجه: ١/٢١.

رسـول الله ﷺ، وحـرَّم الخـوض فيـه، ووجب عــلى المسلم هجره، فليتنبه المسلم للفرق بين الأمرين، ولا يلتبس أحدهما بالآخر، وله في ذلك أسوة بأصحاب رسول الله ﷺ، الـذين حرصوا على بيان معاني القدر، التي جاء بها الوحي، وحرصوا عـلى إزالة الشبهـات عنها، وتـبرؤا ممن جحد هـذا الأصل، وحكموا بخروجه من الملّة.

٧ ــ أثر الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر في حياة المسلم، عامل قوة وحيويـة، وفي نفسه، رافد من روافد الإيمان التام، والخضوع بين يدي الله، والاستسلام له بالكلية.

فمن آمن بالقدر حقـاً، فقد أيقن أن الأجـل مكتوب، والـرزق مكتوب، فـلا خوف من المـوت يثنيـه عن الإقـدام مجاهداً، ولا وجل على الرزق يقعد به عن البذل، فكيف إذا استروح رياح الفردوس تحت عجاج الكريهة، أو تنسم طيب عبيرها، من ندى أكف الجود، في يوم ذي مخمصة.

وكم كفكف الإيمان بالقدر، نهمة طامع لم تملمه العبر، ونفض غبـار خوف الحـمام، عن نفس كانت تـطير لذكـره، واجتث أسباب التواكل، وذهب بجذور العجز، من نفوس لم تكن تعرف معنى الهمة، أو تذق لذة التشمير والإقدام، قال

رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير:

إحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء؛ فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدّر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1].

كل خير بيد المؤمن؛ يثمر خيراً، والقوة في دين الله نصر لدعوته، وقيام له، فانفض عن منكبيك غبار الوهن والعجز، واستعن بالله في طلب الخير، ولا تركن إلى العجز، فإن أصابك ما لا يد لك على دفعه، ولا حيلة في اجتنابه، فدع أسباب الحسرة والندامة، وارض بما قدّر الله، واحتسب عنده مصابك، وامضِ في طريقك، بعد أن استفرغت وسعك وجهدك وأعذرت، ولا تتبع وسوسة الشيطان.

وقد كان رسول الله ﷺ، ومعه أصحابه رضي الله عنهم، وهم أعظم الناس إيماناً بالقدر، أشجعهم عند اللقاء، وأصبرهم عند المحن، وأبعد الناس عن الجبن والعجز. فما كان الإيمان بالقدر، تكأة لمتواكلٍ، ولا ذريعة للوهن، ولا عذراً لعاصٍ أو مقصرٌ. وما أوتي الصابرون حظهم من الصبر، ولا اجتمعت لهم حقيقة التوكل، إلا بعد أن يأسوا إلا

(١) صحيح مسلم: ٤/٢٠٥٢.

من الله، وأيقنوا أن الخير كله في يديه، يبسطه لمن يشاء، ويقبضه عمن يشاء، ويرفع من يشاء، ويخفض من يشاء، ويرحم من يشاء، فاستسلموا لأمره، واستهدوا بهديه، وأنابوا إليه بجماعهم؛ ظاهراً وباطناً.

٨ ـ الاحتجاج بالقدر:

والمسلم يعلم بفطرته السوية، ومن فهمه لما أنزل الله إليه من كتاب وحكمة، أن الله أنزل كتبه، وأرسل رسله، وحمل الإنسان أمانة عجزت عنها السموات والأرض، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن جهالة الوثنية والشرك، إلى فطرة التوحيد، وليزيل الباطل ويزهقه بالحق، ويرفع المنكر ويمحقه بالمعروف، وليأخذ على يد الظالم، ويذيقه وبال أمره، ويجعله عبرة ونكالاً لأمثاله، وليظهر دينه على الدين كله، بالحجة والبرهان والسيف والسنان، كما جاء في محكم تنزيله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[1].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ

(١) سورة الفتح: آية ٢٨.

شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾[1].

ولذلك جاءت الحدود، وأحكام السرقة، والزنا، وغير ذلك من الروادع والزواجر.

فأحكام الإسلام في الدنيا، وأصل الثواب والعقاب، في الدنيا والآخرة، كلها قائمة على أساس المسؤولية، وأن يتحمل كل إنسان مغبة عمله، فأحكام الإسلام والإيمان، جملتها وتفصيلها، وأصولها وفروعها، تكذب من يزعم أن القدر، ذريعة لإسقاط المؤاخذة عمن تجانف للعصيان والإثم، فلمن شرع الجهاد؟ وبم أحل الله الدم الحرام؟ وفيم نزلت أحكام القصاص والحدود؟ ولمن القيامة والحساب؟ والبعث والحشر؟ ولم خلق الله الجنة والنار؟ كل ذلك لا معنى له في منطق هذه الفرية والتي لا تعني إلا إبطال التكليف، وإسقاط أحكام الإسلام، وإذا بك أمام صورة مزعومة لهذا الدين، لا يمكن أن تصدر عن آحاد العقلاء، لما فيها من التناقض والتخبط، والشناعة والتهالك، فما ظنك برب العالمين؟؟.

والأمر في منطق الوحي، وفي ميزان العلم، لا يحتمل هذا التهوُّك.

---

(١) سورة الحديد: آية ٢٥.

فقد أعطى الله سبحانه كل إنسان؛ عقلاً وإرادة، وقدرة وتمييزاً بها أناط تكليفه فمن فقد أحد هذه المؤهلات، بالجنون، أو الإكراه، أو العجز، أو عدم البلوغ، فهو غير مؤاخذ أو محاسب، حتى يكتمل لديه مناط التكليف، فإذا قام المسلم البالغ، العاقل الذاكر، غير ناسٍ ولا جاهلٍ، بأي عمل، خيراً كان أو شراً، ألزمه الله عمله، وكتبه في صحائفه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾[2].

وقد مال مشركو العرب لتحصين أنفسهم بهذه الفرية المخزية، لدفع دعوة التوحيد في صدرها، وتكذيبها، والشغب على دعاتها: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾[3].

---

(١) سورة الزلزلة؛ آية ٧ - ٨.   (٢) سورة الإسراء: آية ١٣.
(٣) سورة الأنعام: آية ١٤٨.

نفس الدعوى الكاذبة التي نرى صوراً منها عند بعض الجهلة المسلمين:

أقام العباد فيما أراد، وله المراد فيما يريد، دع الملك للمالك.

ومن هذا القبيل، ما روى أبو حامد الغزالي (الإمام: حجة الإسلام) في إحيائه: «ولما دخل الزنج [1] البصرة، فقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، اجتمع إلى سهل إخوانه، فقالوا: (لو سألت الله تعالى دفعهم). فسكت، ثم قال: (إن لله عباداً في هذه البلدة، لو دعوا على الظالمين، لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات، في ليلة واحدة، ولكنهم لا يفعلون)!!!.

قيلَ لِمَ؟ قال: (لأنهم لا يحبون ما لا يحب)» [2].

حجة المشركين الداحضة عينها، لكنها هذه المرة تتستر وراء أسماء إسلامية، ومن أناس يفترض - أو كان الكثير من العوام يفترضون - أنهم الناطقون بلسان الحق، القائمون بحجته، ترى لماذا أنزل ربنا - جل وتعالى - كتابه، وأرسل رسوله، إن لم يكن قد بين في كتابه، وفي سنة نبيه ﷺ: ماذا يحب! وما لا يحب! أو ليس هو القائل لنا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ

---

(١) القرامطة الذين اقشعر وجه الأرض لجرائمهم.

(٢) إحياء علوم الدين ٤/٣٠٥.

﴿ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

وإذا كان بعض العوام؛ لا يستحيي أن ينسب إليه أنه يحب سفك الدماء، ونهب الأموال و. . .، فهل يرضى بذلك سهلٌ وإخوان سهل؟؟ وإذا رضي إنسان ما، بما نسبه (سهلٌ) إلى ربه!! فهل نستطيع القول، أن هذا الإنسان! يحب صيانة الأموال، والدماء، والأعراض؟؟ فما ظنكم برب العالمين؟ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[2]!!.

ترى ما قول حجة الإسلام الغزالي، في ما رواه من كلام كفيل بنقض الإسلام؟ هل أقام للإسلام حجته فأبطل هذه المبالغات المتفلّتة؟ فأثبت أنه بعلمه: حجةٌ للإسلام؟ قال الشيخ رحمه الله: «ثم ذكر من إجابة الله أشياء، لا يستطاع[3] ذكرها، حتى قال: (ولو سألوه أن لا يقيم الساعة، لم يقمها)[4]!! وهذه أمور ممكنة في أنفسها، فمن لم يحظ بشيء

---

(1) سورة آل عمران: آية ٣١.
(2) سورة الزخرف: آية ١٧.
(3) ما عساها تكون قياساً على ما قبلها، وما بعدها؟ وهل بقي بعد ذلك ما يستحىٰ منه؟.
(4) علم الساعة، وهو أمر دون التصرف فيها، قد حجبه الله عن جبريل، ومحمد ﷺ، أمينا السماء والأرض، فلا بد أن يكون من جعل الله إبطال الثواب والعقاب، وهدم التكليف، والإسلام

منها، فلا ينبغي أن يخلو عن التصديق والإيمان بها، فإن القدرة واسعة، والفضل عميم»[1]!!.

أما أن تكون هذه الأمور ممكنة، ومنها إبطال الساعة، فلا نتيجة لهذا الإمكان، سوى تكذيب القرآن الذي نزل آمراً بالتصديق بالساعة، والإيمان بها إيماناً قاطعاً جازماً: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[2].

فكل ما يشكك في الساعة، أراجيف كفر، وأسمار كهّان، وأباطيل سحار، ولا حصيلة لما يدعو (الإمامُ) المؤمنين: (ألا يخلو آحادهم من التصديق والإيمان به) سوى إهدار النبوة، وتعطيل الرسالة، وبذلك يكون الإيمان والتصديق الذي جاء به القرآن، وأمرنا به الله ورسوله، ملزماً لكل مسلم يحترم عقله، ويستحق خطاب الشارع بالتكليف، بضرورة تكذيب هذه الضلالات، ومبطلاً لها: إيماناً بالله ورسوله، وكتابه، وقدره خيره وشره، واحتساباً للأجر، ومحاربة للمنكر، فإن من اعتقد بإمكان إبطال الساعة، فقد كفر بالله العظيم، ونعوذ بالله من التقليد الأعمى، ومن تقديس الكبراء، فلطالما اغتر

بالتالي، منوطاً بدعائه، وهو ما يترتب على عدم إقامة الساعة، لا بد أن يكون في مقام الربوبية، وهذه بعض لوازم عبارات القوم: (فظنّ شراً ولا تسأل عن الخبر).

(1) الإحياء: ٤/٣٠٥. (2) سورة الواقعة: آية ١، ٢.

البسطاء من المسلمين، بتقوى بعض الكبار المشهورين وهيبتهم، ولم يفرقوا بين الاحترام الواجبَ لمن استحقه من أئمة المسلمين وعلمائهم، وبين وجوب محاكمة أقوالهم إلى الأصل الذي يخضع له الجميع، فحملتهم ألقاب التعظيم على قبول آراء باطلة، ومعتقدات فاسدة، وكان انخداع المسلمين على الأكثر، بما حمله الفكر الصوفي من طقوس وإشارات، ورموز ومعميات، تشيع الرهبة ولا تشبع الفهم، وخصوصاً ما روّج له بعض سدنة هذا الفكر، من وجوب التسليم للشيخ، والتلقي عنه دون مناقشة، فانحرف كثير من المسلمين عن سبيل السنة، وعن منهج الجماعة، وتأثروا بالترهات التي تناقض أصول الإسلام، وتفسد عقائده وعبادته.

فواجب المسلم أن يتنبه لإصلاح دينه، وأن يلزم كتاب الله وسنة نبيه، ويجعله ميزاناً له، فثم دين الله، وثم شرع الله، وثم سبيل النجاة والهداية، والفوز والفلاح.

وإذا قيل أن مثل هذه الأقوال المنقولة هنا عن الشيخ الغزالي: مكذوبة مدسوسة، أو أنه رجع وتاب عنها، فإن البيان لضلالة أقوال منسوبة له، يجبُّ عنه قالة السوء، ويطهر صفحته عند المسلمين، ولا يضيره في شيء، وإن كان قد تاب عنها؛ فإن توبة[1] الكتاب المنشور للكاتب، ضرورة لازمة لتمام

---

(١) بنقده وبيان ما فيه من انحرافات وأخطاء.

توبة هذا الكاتب، ولا يغني رجوعه في السر، عما نشره على الملأ، ولا يدفع غائلته، أو يطفيء ضرره.

فلا بد من بيان الحق، ومن كشف الانحرافات والضلالات، أداء لواجب سار العلماء في سبيل أدائه قبلنا، وحفظاً لأمانة حرصوا وجهدوا في إيصالها إلينا، والله الموفق الهادي.

الفصل الثالث

الإحسان

أولاً: معنى الإحسان:

جاء في تمام الحديث: «قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: (الإحسان إن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).».

وفي حديث شداد بن أوس: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحدّ أحدكم شفرته، وليُرِح ذبيحته»(١).

والإحسان لغة: ضد الإساءة، كما أن الحسن: ضد القبح.

وقد فسر رسول الله ﷺ الإحسان في حديث جبريل، بأعظم أسبابه الباعثة عليه، وهي المراقبة لله تعالى في العمل، واستحضار القلب معاني ربوبيته جل وعلا، والانفعال بها رغبة ورهبة، إذ أنها من أعظم أسباب الإخلاص، الباعث على الإتقان.

---

(١) رواه مسلم: ١٥٤٨/٣.

وقد نبه الحديث، على أن الباعث للعبد، على استفراغ الوسع، في رعاية جانب الله في العمل، قائم ولو كان العبد لا يرى ربه في الدنيا، ما دام ربه يراه، ويعلم منه كل خافية وظاهرة.

وأما حديث شداد بن أوس، فهو يتعرض للجانب العملي من الإحسان، فيؤكد لنا أن طلب الإحسان والإتقان، واجب المسلم في كل ما يعمل، وليس قاصراً على العبادة المحضة، كما قد يخطر للبعض، والحديث في هذا التأكيد، يتوافق مع ما جاء من الأمر بالإحسان في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[3].

---

(١) سورة النحل: آية ٩٠.　　(٢) سورة البقرة: آية ١٩٥.

(٣) سورة القصص: آية ٧٧.

ويرتفع القرآن بمرتبة هذا الأصل، حتى يضعه في مصاف عظمىٰ غايات الكون، وحكم الخلق: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[1].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[2].

وبذلك تمتد أبعاد الإحسان المكتوب تكليفاً، لتلازم سلوك الإنسان في أبعد آفاق هذا السلوك، وتصبح معلماً مميزاً، من معالم السلوك الإسلامي. ويكون إحسان العمل - أي عمل - بالإتيان به مستوفىٰ تاماً، دون نقص أو خلل، همّاً من هموم الإنسان المسلم في كل شأن من شؤونه: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[3].

وابتداءً بالفعل البسيط، كذبح شاة، يكون انطلاق المسلم في عمله كله، على أساس إجرائه على مقتضىٰ التوحيد، فيكون الذبح باسم الله؛ الذي خلق وأنبت اللحم، ورزق فاستحق

---

(١) سورة الملك: آية ١ - ٢.   (٢) سورة هود: آية ٧.

(٣) سورة القيامة: آية ١ - ٢.

الحمد والشكر، ومقتضىٰ الرحمة بالذبيح المسخر لخير الإنسان، بإحداد الشفرة، وتحسين الأداة بيد الذابح.

فالإحسان منهج الكمال البشري في التسخير:

ـ الكمال في اختيار الأغراض وفق التوجيه الرباني.

ـ والكمال في إتقان الفعل وإنجازه واستثماره. وهو كمال يقوم على:

ـ الكمال في معرفة صفات الربوبية، والانفعال بها (مراقبة وخشية وإخلاصاً).

ـ سلامة نظرة الإنسان للكون، وتصوره لحركته ومصيره وسننه.

ـ التزام منهج الله في العبادة، وفي بناء العلاقة الإنسانية، وفي ضوابط الحركة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1].

---

(١) سورة فاطر: آية ٢٧ ـ ٢٨.

فالعلماء الذين اكتملت خشيتهم من الله، دون غـيرهم، هم الذين اجتمعت في قلوبهم أسباب الخشية، مما عرفوا من الحق، وعرفوا سبيلها، من الحلال والحـرام، ثم أوتوا قـدرة تسخير الكون لتوحيد الله، وإعلاء كلمته. فكمال الخشية بهذا المعنى، هو كمال الإحسان.

ثانياً: رجل الإحسان:

العمل إدراك واستجابة، وطاقة وحركة، وتنسيق وتكامل، وصبر ومصابرة. فهو ثمرة لسلسلة متداخلة من العمليات، الفكرية والنفسية، والفردية والجماعية، والبدنية.

فنجاح العمل المخطط، يتطلب بالتأكيد، تنفيذ هذه السلسلة من الأعمال بصورة متقنة ابتداء، ومكافئة لحجم ونوع العقبات التي تعترضها كذلك.

وهذا يتطلب قدراً من التماسك والإدراك، والإصرار والمثابرة، والمتابعة والتقويم.

فهو بالتالي يتطلب الإنسان المؤهل تأهيلاً كافياً بهذه القدرات، والمتمتع ببنية نفسية وعلمية عالية، ورصيد من الفهم والإدراك، إلى جانب طاقاته العملية التنفيذية.

فإذا وجد هذا الإنسان، فقد وجدت المقدمة الأولى لتحقيق الإحسان. وتغيير اتجاه الحركة الاجتماعية وإنجاز المهام العظمىٰ.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: (من عادىٰ لي ولياً،

فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحبُّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يـزال عبدي يتقـرّب إلي بالنـوافل، حتى أحبَّه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله، ترددي عن نفس[1] المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)»[2].

هذا الحديث القدسي، الذي يـروي لنا رسـول الله ﷺ كلماته عن ربنا جل وعلا، يضع أمامنـا أبرز معـاني الإحسان ونتـائجه، ويدلنا على السبيل الـذي يسلك بنا إليـه. وأهم خطواته.

فمنـزلة الـولاية الـرفيعة، وهي أحـد وجوه الإحسـان، وأشرف مراتب العبودية، ونهاية مسارها، تضع صاحبها، بعد طول سعي، وبعد مروره بأنواع البلاء والمحن، وخروجه منها صافي القلب، سليم الطوية، تضعه في كنف الرحمن وحمايته، بعيداً عن مهاوي الفتنة، وعن الانتكاسات التي تذهب بكثير

(١) عن قبض نفس المؤمن.

(٢) صحيح البخاري: ١١/٣٤٨ ـ ٣٤٩، الفتح.

من السائرين الأغرار، بل وتمكنه من عنان التسخير الراشد، لما في الكون من قوى وقدرات.

فإذا عرفت المقدمات التي حملت أهل الولايـة، إلى هذه الذروة الرفيعة من القدرة والتمكن من الأسباب، علمت أن ليس في المسألة سر، أو معمَّيات، من نوع أسرار الكهان، أو غوامض أهل الشعوذة.

فسلوك سبيل العبودية، أول مراقي الولاية، والتوحيد فهماً وإقراراً وخضوعاً، أول منازل العبودية سلوكاً، وأداء الواجبات المفروضة على العبد، أولى لبنات البناء، والاجتهاد في النوافل المسنونة، استكمالٌ لمسار الشوق الإنساني إلى الكمال، وتقلب العبد في أنواع البـلاء، وأصناف البـذل، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وفي سعيه في الأرض، مشدوداً إلى ربه برباط العبودية هي التي تقربه من مشارف الكمال الذي يحبه الله في هذا العبد، فإذا خشعت خفقات قلبه لله، حباً فيه وبغضاً، واستقامت جوارحه على هديه، في الخضـوع للأمـر والنهي، والتزام المسنون والمكروه، حتى لم يعد يبصر إلا بهدي ربه، ولا يسمع إلا لأمره، ولا يمشي إلا في طاعته، أو يبـطش إلا في حبـه، ظهرت عليـه دلائل الـربانيـة[1]، ووهبـه الله ثمـرات

---

(١) التأييد الرباني.

إحسانه، رشداً وبصيرة، وقوة وهداية، حتى يصبح وكأنه ينظر بنور الله، ويسمع بإلهامه، ويبطش بقدرته، ويسعى إلى غايته بنصره ومعونته، ثم يرزقه الله إجابة الدعوة والسؤال.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1].

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

والأمر الذي يستحق الاهتمام، بشأن قدرات الرجل الرباني، أو مواهب رجل الإحسان، أن هذه القدرات والمواهب الفريدة، التي يتحلىٰ بها هذا الصنف من المؤمنين، إنما يأتي ثمرة التزام دقيق وشامل لمنهج الفطرة ونظامها، وهي تمثل تطابق السنن الأخلاقية التي جاء بها الإسلام، مع حقائق الكون وسننه الثابتة التي قررها في عقيدته وتصوراته، وهذا

---

(١) سورة السجدة: آية ٢٤.

(٢) سورة آل عمران: آية ١٤٦ ـ ١٤٨.

النظام الأخلاقي، مع سنن الكون المادية، هما شقّا الفطرة الربانية في الخلق. فسنن الأخلاق التي نزل بها الوحي، تقود حركة الإنسان الإرادية الحرة، لتلتقي مع السنن المادية الإنسانية في تربية نتائجهاالعملية، وتشكيل أساس الاستخلاف الراشد، أو سبيل الإحسان.

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾[1].

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

فالعلاقة في تكوين الإنسان، بين الجانب المادي؛ المكون من لحم وعظم وعصب، وبين الجانب الأخلاقي أو الروحي، المكون من شعور وإرادة، علاقة حميمة وثيقة. وذات آثار متبادلة.

والوجود الروحي في كيان الإنسان، قائم على وجوده المادي، ومتأثر بأحواله من ضعف وقوة. كما أن وجوده المادي، يتأثر بأفكاره وعواطفه وأخلاقه.

(١) سورة التين: آية ٤ ـ ٨. (٢) سورة البقرة: آية ٣٠.

فأفكار الإنسان ومشاعره تلعب أدواراً مختلفة؛ في مسارها وثمارها، فيمكن أن تؤدي التصورات الخاطئة عن الخير والشر، والحق والباطل؛ إلى حروب ومنازعات بين الأفراد والجماعات، تثمر الدمار والموت والخراب، كما يمكن أن ينتج التعاون والاستقرار، وتحقيق الخير والنماء، عن المفاهيم والمشاعر الصحيحة. وهكذا تؤثر إرادة الإنسان؛ والتي تتأثر بتصوراته ومشاعره؛ في وجوده وسلامته، وسائر أحواله المادية، من ضعف أو قوة، أو صحة ومرض.

فالإيمان الذي فطر عليه الإنسان، والذي يضعه على طريق الحق بعد أن يصله بالمصدر الرباني للمعرفة والفهم وتوجيه مشاعر الحب والبغض، هو الذي أشار إليه الله تعالى، في جوابه على استشكال الملائكة، اختيار الإنسان لخلافة الأرض، مع ما في أعماله من فساد، قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

وتقويم الإنسان الذي زكاه الله به، وفضله به على سائر مخلوقاته، إنما يقوم على المعرفة الإيمانية المذكورة، فإذا تجرد من مقوماتها ونتائجها، هوى إلى دون سوية الحيوانات: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

ثالثاً: سبيل المحسنين:

الملاحظة الجديرة باهتمام الدارس، أن المدة ما بين بدء رسالة الإسلام، بابتداء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وحتى انتهاء عصر الفتوحات الإسلامية الكبرى، مع انتهاء دولة الخلافة الأموية، لم تشهد أي تحول ظاهر في نوع السلاح المستخدم في المعارك، ولم تعرف تطوراً نوعياً في وسائل القتال، أو تقدماً صناعياً بارزاً، أو تضخماً مؤثراً في تعداد السكان، أو تغيراً في الموارد الاقتصادية.

ومعنى هذا، أن الحياة في جزيرة العرب قد شهدت تغيرها الفذ، بعد نزول رسالة الإسلام، وتحولت الجزيرة بعدها، من مجال استعماري مفتوح، نظراً لحالها السابق من الجهل والفوضى، والتفكك والتطاحن، إلى قاعدة حضارية رائدة، غيرت مسار العالم وتاريخه، واتجهت به نحو النور نتيجة لأسباب ومؤثرات غير هذه الأسباب المذكورة يقيناً، وإن كانت أنظار أكثر المسلمين، قد تعلقت في عصرنا بتلك الأسباب، وظنوا أن فيها كل القوة المطلوبة لتحقيق التقدم.

لقد جاءت دعوة الإسلام إلى العالم، في وقت ساد فيه ظلام الجهل، حيث إختلطت الحقائق بالخرافات، وطمست الضلالات وجه الحقائق، وتعذر التمييز بين أسباب الخير، وبين مصادر الشرور والجشع والأهواء. فكانت أول خطوة لتلك الدعوة؛ أن وصلت عقل الإنسان، بمصادر المعرفة الشاملة، وكانت أول كلمة نزلت من عند الله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (٣) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[1].

فابتدأ القرآن قراءة جديدة لحقائق الكون، وأعاد ترتيب هذه الحقائق، وأعاد ترتيب مفاهيم الخير والشر، ونزع القداسة عن أحجار كانت تُسمىٰ بأسماء الإله، وتعطىٰ حقوق الربوبية، وأعاد الإنسان إلى فطرته السوية، من خلال ميزان علمي دقيق وشامل، ثم ربط مشاعر الإنسان وأحاسيسه، بإرادة المعبود سبحانه وتوجيهه، وأعاد صياغة أخلاق الفرد، وبناء روابط الجماعة، وأقام من خلال مصادر الإسلام وموازينه الربانية، وحدة في التصورات والمفاهيم العلمية، ووحدة في الدوافع والأهداف، ووحدة في ضوابط الحركة، ووحدة في القاعدة الأخلاقية للأمة، ومن ثمَّ جاءت وحدة الجهود والمسار والطرق.

---

(١) سورة العلق: آية ١ ـ ٥.

وبـذلك وجـدت نواة مجتمـع متكامـل متحـرك، امتلك مقومـات البناء الـذاتي، وامتلك القدرة عـلى مواجهـة كافـة المشكـلات الخارجيـة وتطويعها، فانـطلق ـ من خلال مجتمـع المـدينة ـ يحشـد طاقـاته، ويستكمـل جهازه الإداري، ويغني تجـربته العمليـة، ويوسّـع آفاقـها، ثم مشى يحمل دعـوتـه، ويوطىء لها الأكناف والعقبات.

لقد غيّر الإسلام اتجاه الحركة الاجتماعية وأهدافها، فأحل التسامح مكان التعصب، والانفتاح ورحابة الصدر في موضع الانغلاق، ورفع راية العدل والأخوة، بعد أن نكس وحارب الرغبات الفردية الضيقة، وألغىٰ الاستغلال والأثرة والجشع، ليقيم أخلاق الإيثار والتـآزر والحب، ودفع الإنسـان لإقامـة مجتمع الحب والتكافل والتكامل. بعد أن كان يخب في وهاد التطاحن والتحاسد.

وقد أصلح الإسلام روابط المجتمع الداخليـة، وصحح عـلاقاتـه الإنسانيـة التي كانت سـائدة، فـأحيا روح الإخـاء والمسـاواة، وبذر بـذور الحب والتآخي والتسـامـح، وجعـل السيـادة حقاً خـالصاً لله، وأنـاط من طاعـة الحاكم بمـوافقته للمعـروف الذي أمـر الله به، وجعـل الشورىٰ معـين بصيرة ونصح لكل مسلم، وأقام ضوابط الأمر بالمعروف، والتنادي لسد الثغرات، فتحول الناس إلى الاجتماع عند غاية واحدة،

والتقت جهودهم ومشاعرهم عند هدف واحد، فقام مجتمع التراحم والتكامل والتوحيد.

وباختصار: لقد غير الإسلام اتجاه حركة المجتمع وعلاقات أفراده، من التآكل إلى التكامل، بعد أن غير ضوابط هذ الحركة، وغير من قبلها تصور الإنسان عن الخير والشر، والحق والباطل.

وعلى هذا الأساس، قامت التجربة الإسلامية في القيادة، ومعجزتها الفذة في التغيير. وولدت مزاياها الإدارية المتميزة، التي اختزلت أبعاد الزمان، في طريقها نحو أهدافها.

وبهذا نعلم: أن منهج الاستخلاف الإسلامي يقوم على:

(تفاعل منضبط بين تصورات الإنسان، عن الخير والشر، والحق والباطل، وبين مشاعره، من خلال ميزان علمي[1]، يؤصل منهج بناء أخلاق الفرد، وروابط الجماعة، ويرشِّد اتجاه حركة الأمة، ويوفر لها إمكان حشد طاقاتها، وتربية مواردها، وإقامة بنية إدارية، تضع كل الطاقات والإمكانات في خدمة أهداف الاستخلاف، وتنطلق بالأمة، مروراً بالتحديات والعقبات الخارجية، نحو مثلها السامية، وغاياتها الفضلى).

---

(١) هو النهج الذي أصَّله رسول الله ﷺ، وتلقاه منه الصحابة، ويعرف بمنهج أهل السنة والجماعة.

وذلك هو منهج الإحسان، الذي أضاعت أمتنا آخر معالمه؛ في وجودها الاجتماعي؛ بسقوط الخلافة العثمانية، وإصابة الفعل الجماعي الإسلامي بالشلل والعجز والضمور.

وإن أهم ملاحظة في آخر مائتي سنة من التاريخ المعاصر، أن العالم الإسلامي، كان ينسحب من مواقعه القيادية في العالم، بيما كانت أوروبا؛ تعيد صياغة منظومتها الاجتماعية بصورة جديدة، لتصنع أضخم قاعدة استعمارية، تستند إلى أقوى قاعدة اقتصادية، يشكل جهازها الإداري، أخطر أسلحتها، وأشدها فتكاً.

ومنذ أن اختلت رؤيةالمسلم لمنهجه، وتحول الدين إلى نصوص ومتون جامدة، وطقوس ومظاهر شكلية، ولم يعد يستفيد منه سوى التذرع للتواكل ومصادمة المقتضيات الفطرية للحياة، فقد هذا المسلم عملياً؛ تصوراته المتميزة للحقائق ورؤيته السببية الفذة للحدث، وابتعد عن منطلقاته ومبادئه، وتداعت رابطته الاجتماعية، وبكلمة واحدة، لم يعد الدين برنامج عمل في حياة هذا المسلم.

فكان لا بد أن يتحول كثير من المسلمين، للبحث عن البدائل التي تسد الفراغ الذي تركه غياب البرمجة الدينية لحياتهم، وأن تجد النظم الصليبية ـ باعتبارها البديل الأبرز

والأقوى ـ السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، مكانها في طروح المسلمين، ومحاولاتهم، وأفكارهم.

وكان لا بد أيضاً، بعد ضياع التصور الديني البرنامجي، واختفاء الروابط المنهجية، التي تربط أصول الدين ببعضها، وتجعل منها منهجاً متكاملاً، لا بد أن ينشأ التناقض والتشاكس، بين العقيدة بما تشمله من تصورات مبدئية، للخير والشر، والحق والباطل وبين النظم التي أفرزها واقع المسلمين، في الدعوة، والسياسة، وأن تسهم آثار الغزو الفكري الصليبي، والتي تسللت من خلال تجارب المسلمين الإصلاحية المختلة، في تغذية وتأصيل هذا التناقض.

وإذا كان ضغط الواقع، قد أسهم في وجود برامج[1] إسلامية، أغفلت أو أهملت، ارتباط الحركة بالأصول، وأثر العقيدة على مسار الدعوة، ودور وحدة التصورات والمبادىء؛ في بناء وحدة الصف والكلمة، ثم لم تجد غضاضة في استيحاء البرامج[2] العلمانية، في مجال السياسة، والدعوة. فإن عجز المسلمين عن تحقيق الرؤية السوية، للعلاقة بين العقيدة والتصورات الأولية، وبين حلول المشكلات وسبل التجديد، لنظم الإسلام وتشريعاته وحركته، قد أسهم من جانب آخر،

---

(١) نسبة إلى المسلمين.

(٢) البرامج غير الدينية من نظم الصليبيين الوافدة.

في زيادة الشقة بين أصول الإسلام، وبين أفكار المسلمين وتجاربهم ومناهجهم.

وفي ظل هذا الاضطراب، نشبت المعركة الجدلية، حول الموقف من الحضارة الغربية، ونظمها ومفاهيمها وأساليبها. وتطاير رشاشها في كل مكان، وأضافت مزيداً من التشكيك في حقائق الدين الأولية، ومسَّت مسلماته الكلية[1]. وكادت أن تمحو من أذهان المسلمين؛ التناقض العقدي؛ بين الإسلام؛ باعتباره ديناً رباني المصدر، إلهيَّ المنهج، وبين سائر الأديان والفلسفات الأخرى، التي تعكس تحريف الإنسان أو تسخيره للدين، أو تمرده على الألوهية والربوبية، ومصادمته لحقائق الكون القطعية، ونواميسه الثابتة. بعد أن تلاشت عند كثير من المسلمين، منهجية الإسلام، ومزاياه التوحيدية الفذة.

فكاد الكثير من الدعاة المسلمين، أن ينسوا أهم حقائق التوحيد، وهي التي تعلق تحقق مبدأ العبودية ابتداء، على إلغاء كل ولاء واعتبار لغير الإسلام، وكل طاعة وعبادة لغير الله، فلا إله إلا الله هي نفي لكل عبودية لغير الله؛ تقوم عليه عبودية الله؛ عبودية توحيد وإفراد، إطلاقاً وشمولاً. ومحمد رسول الله: إلغاء لكل نظام أو دين إلا دين الله؛ الذي جاء به

---

(١) تقدم الحديث على أثر الفلسفة الديموقراطية، ودورها في تشويه مفهوم الألوهية الصحيح ارجع إلى الصفحات (٢٦ ـ ٤٠).

رسول الله ﷺ، فأساس الإسلام هو توحيد لمصادر العلم. وإرساء لوحدة التصورات والمفاهيم والمباديء، وهي الضمانة الأولى، من أجل تحقيق استقرار الكيان الداخلي للإنسان أولاً، وسلامه وتماسك الروابط الجماعية ثانياً: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2].

فعبادة الله، والرجوع إلى علمه، جماع الحق والهداية إلى الرشد، وتعدد مصادر العلم، وبشريتها، سبب أكيد لاضطراب الفهم، وتضارب المفاهيم، ومنقذ لنقض عروة التوحيد: مبدءاً، وتصوراً، وفهماً، وسلوكاً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[3].

وأقبح ما في الشرك هو خبثُ الانحراف عن التوحيد، وخبَثُ التصورات الشائنة، والأنظمة المتمردة على الألوهية، التي تضاد سواء الفطرة، وتستبدل الباطل بالحق، وتنتكس بالإنسان

(١) سورة الزمر: آية ٢٩. (٢) سورة النساء: آية ٨٢.
(٣) سورة التوبة: آية ٢٨.

عن سبيله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[1].

وعلى ضوء هذه الحقيقة؛ يمتنع ويستحيل؛ أن يقبل المسلم جمعاً بين المبدأ الإسلامي في التوحيد، والتزامه للتوحيد ديناً، يجمع العقيدة والمبادىء والمنهج، وبين استمداد الأنظمة والفلسفات الصليبية الطاغوتية، ذات المصدر الشركي، بطبيعتها التعددية، والروح المتمرد على الألوهية، إذ هي كلها عوامل تدمير لكيان الفرد، وروابط المجتمع، ووجود الأمة.

وعلى ضوء هذه الحقائق، تلتقي أصول الإسلام العلمية؛ الدنيوية والأخروية، على اعتبار استمداد المصادر غير الإسلامية فيما يتعلق بالأخلاق والتشريع والنظم والتصورات، أو الاحتكام إليها، نقضاً لعروة التوحيد الوثقى، وخروجاً على منهاجه، ومشاقة لسبيله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[2].

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٢٦. (٢) سورة النساء: آية ٦٠.

غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[1].

والحقيقة التي لا يجوز أن تغيب عن عقل المسلم، أو يضيق بها صدره، أو يخجل من إعلانها، والانطلاق من إطارها:

أن الإسلام منهاج عمل كامل، بتصوراته، ومبادئه، ونظمه، وأخلاقه، وهو منهج قادر على تلبية حاجات الإنسان، على اختلافها وتجددها، وهو أكمل نظام عرفته الإنسانية، جمع أسباب الصلاح والهداية كلها، فهو مستغنٍ عن كل نظام، أو فكر، أو فلسفة، أو دين. وما سواه لا يخلو من النقص، أو الخلل بحال.

فالاتجاه خارج إطاره، بحثاً عن الكمال، أو تلبية حاجة لأهله (في مجال القيم والتصورات، والنظم الأولية والمفاهيم والأخلاق) يستلزم انتقاصه، والطعن في كماله، ونقض أولياته.

فالتوحيد سدٌّ لأبواب الشرك، وقطع لذرائع تعدد المصادر والمراجع، وكمال الربانية، لا يجامع قصور البشر، ولا يوافق مسار شهواتهم.

---

(١) سورة النساء: آية ١١٥، ١١٦

وعمليـة استيراد الأنـظمة، في كيـان الإسلام، وكـذلك اقتباس الأفكار، واستعارة المفاهيم، لا تعني سـوى الإجهاز على مقومات إسلامية الدعوة، ومرتكزاتها التـوحيديـة، ذات المصدر الرباني

أمـا إذا استعاد المسلمـون؛ ما انقـطع لديهم من رؤيـة منهجية لدينهم، تكاملاً وتفـاعلاً، واستعـادت أصول الـدين مكـانتها، ودورهـا في برمجـة حياتهم، وامتلك المسلم رؤيتـه الـربانيـة الفريـدة، وقراءتـه الدينيـة السببية لآفـاق تاريخـه، وحاضره، ومستقبله، ووعىٰ حاجاته ومتطلباته، أمكن الانتقال بعد ذلك، إلى التفكير في الاستفادة من التجربة الأوربية، على أساس منهجي متكامل، وانطلاقاً من منظور ذاتي حر.

وكمقدمة شرطية، لإمكان الاستفادة من التقدم الأوربي وتجربته، لا بد من التمييز بين أمرين متداخلين في هذه التجربة، كما هو في كل فعل إنساني:

الأول: هو المرتكز المادي في الفعل الحضاري، والسنـة العملية التي يقوم الفعل بها ومن خلالها، وهو الذي يمثل تراثاً بشرياً عاماً، وثمرة التجربة الإنسانيةالمشتركة.

الثـاني: الجـانب الثقـافي، أو الأخـلاقي، في الفعـل الحضـاري، ويمثله، غرض الفعـل الـذي وجـد لأجله، أو التصور الذي تولد عنه.

فصناعة الأدوات والوسائل، بمختلف أنواعها وأشكالها، ومثله إقامة المؤسسة الإجتماعية، بحاجة إلى خبرة عملية تجريبية بطرق إنتاج الوسائل، وبناء المؤسسة، بصرف النظر عن الغرض الذي تنتج الأدوات لخدمته، أو تقوم المؤسسة به، وهي تمثل السنة العملية.

فقد تستخدم السكين مثلاً، في ذبح حلال، يخدم أغراض التوحيد، وينطلق من مثله ومبادئه، كما يمكن أن تستخدم هي نفسها في جريمة قتل، يسفك فيها دم حرام، وتسبب شرخاً في جانب من روابط جماعة متلاحمة. وقد تكون المؤسسة جزأً من نظام إسلامي، فتخدم تربية روابط الأمة، وحماية مُثُلها مثلما يمكن أن تكون جزءاً من نظام غريزي، متمرد على التوحيد، ومحارب لأخلاقه ومثله، مَثَل كل المؤسسات الثقافية الصليبية، سواء ما كان ذا صفة ثقافية بارزة، أو ما يخدم أغراضاً ثقافية صليبية، قريبة أو بعيدة، ظاهرة أو خفية.

فالمرتكز المادي، الذي يمثل السنة العملية، يمكن نقله[1]، وتطويره، واستخدامه في أغراض مخالفة تماماً، لأغراض ومثل البيئة التي نقل منها، فالضرر الذي يمكن ينتج منه، يأتي من فساد الأغراض التي يسخر لها، أو المثل التي يوضع في

(١) ويمكن أن يؤخذ من اليهودي والنصراني، والشيوعي الذي لا يؤمن بدين سماوي.

خدمتها. فمعرفة قانون سقوط الأجسام، وقوانين الضوء والصوت، هي معرفة إنسانية، يمكن تسخيرها لمختلف الأغراض، وشتىٰ الأهداف. ومثلها المعارف المتطورة، التي حققها الإنسان الأوربي، في أساليب الإدارة، والعلاقات الاجتماعية، في جانبها التجريبي المجرد، بعيداً عن أية خلفية أو آثار ثقافية، تتعلق بمفاهيم الإنسان الأوربي، عن الخير والشر، والحق والباطل، أو بتطبيقه لهذه المفاهيم، أو أغراضه في تسخيرها.

وكل ذلك شروط بامتلاك الرؤية المنهجية الإسلامية، وتجسُّد القراءة البرناجية الواقعية لهذا المنهاج، في مناهج المسلمين، ومفاهيمهم، وتجاربهم.

وقبيل ختام هذا البحث، لا بد من ذكر أهم القواعد، التي تمثل أسس منهج التسخير الإجتماعي، والتي يمثلها منهج أهل السنة والجماعة، والإشارة إلى أبرز صفاتها وآثارها المنهجية بإيجاز.

رابعاً: أصول منهج أهل السنة والجماعة: (قواعد الاستخلاف والإحسان):

١ ـ مفهوم منهج أهل السنة والجماعة:

المراد بالسنة، سنة رسول الله ﷺ، والجماعة: جماعة أصحاب رسول الله ﷺ، الذين اهتدوا بهديه، واقتدوا بسنته، والمنهج هو منهج رسول الله ﷺ، وما كان عليه هو وأصحابه، ويضبطه مجموعة الأصول الثابتة، التي تشكل قواعد هذا المنهج، وتحفظه، وتعرِّف به، وتحدد معالمه، فأهل السنة هم المنتسبون إلى رسول الله ﷺ، المتلزمون بسنته، القائمين بدعوته، دون من انتسب إلى غيره، من إمام أو متكلم، أو زعيم، أو من انتسب إلى غير سنته من مذهب، أو مقالة، أو فرقة، يتعصب لغير رسول الله، ويلزم غير سنته من مقالات وأصول وقواعد، فكل ما سوى سنته ﷺ، سبيل للفرقة والضلال، وكل من عدا شخص رسول الله، تبع له ﷺ، لا يجوز التعصب له، أو لزوم أقواله، وكل جماعة غير جماعته عرضه للخطأ والصواب.

وهذه الأصول تنقسم تبعاً لمجالاتها؛ إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الأصول الاعتقادية، أو أركان الإيمان.

النوع الثاني: الأصول العلمية.

النوع الثالث: الأصول العملية.

أما الأصول الاعتقادية، فقد تقدم ذكرها، في ثنايا شرح حديث جبريل عليه السلام، كما تقدم استعراض لأهم معانيها وأبعادها، ويمكن القول إجمالاً، أنها تتضمن التصور الإسلامي، لحقائق الكون الكبرى، وسننه الثابتة، مثلما تتضمن بيان أصل هذا الكون، وغايته التي خلقه الله لأجلها، ومصيره الذي يصير إليه. وتحدد تحديداً قاطعاً، معاني الحق والباطل، في مجال التصورات الإنسانية للكون والطبيعة، وتوضع الفوارق التي تميز صفات الخالق، عن صفات المخلوقات كلها، بعيداً عن الوهم والظن، والخرافة والتقليد، وتربط عقل الإنسان بمصادر المعرفة الربانية المعصومة، ومنهجها.

وتحدد الأصول الاعتقادية كذلك، أبرز المثل الأخلاقية، والمبادىء السلوكية المثالية، فتضع المعالم الثابتة، لمعاني الخير والشر، في أخلاق الإنسان وسلوكه. وتمهد لبناء منهج عملي،

يستند على هذه الأصول، وينبثق من مثلها ومبادئها، ويمكِّن لها في واقع الإنسان المسلم ومجتمعه.

والنوع الثاني: الذي يشمل الأصول العلمية، يتضمن نظرية المعرفة الإسلامية، التي تنقسم إلى شقين أساسيين:

١ ـ تحديد مصادر المعرفة الإسلامية.

٢ ـ تنظيم سبل المعرفة الإسلامية.

ويمكن ذكر أبرز الأصول العلمية، في منهج أهل السنة والجماعة:

١ ـ **الوحي** بشقيه: الكتاب، والسنة الصحيحة، هو مصدر المعرفة الأساس، في كل المجالات: الاعتقادية، والعلمية، والعملية. وعليه ترتكز كل الأصول الأخرى.

فهو الحَكَم على كل تصور، أو قاعدة، أو عمل. والحَكَم في رفع الخلاف، وفض النزاع.

وعلى هذا الأصل، تقوم ربانية المعرفة الإسلامية، ويتم الاتصال بهدي الله تعالى، ومعرفة إرادته الشرعية، وما يحب منا، أو يكره لنا.

وعليه تتأسس وحدة مصدر المعرفة الإسلامية ومنهجها، وهي أصل لقواعد الوحدة الإسلامية الأخرى، وقوام بقائها وحمايتها.

٢ ـ السنّة مفسرة للقرآن:

وهي مصدرٌ معصوم، أوحىٰ بها من أنزل القرآن جل وعلا، وإذ تقدم عليها القرآن، بشرف كلامه ونظمه وإعجازه، وشرف تلاوته والتعبد بها، فهي تفصل مجمله، وتبين متشابهه، وتوضح عمومه، فهي ميزانه، الذي يعرِّف مقاصده، ويجلي مراميه، ويحدد أغراضه.

فبالسنة المكملة لبيان القرآن تلتقي وحدة الفهم والتأويل، بوحدة المصدر والأصل، لبناء المعرفة الإسلامية، وشد أركانها، وتأصيل وضبط معالمها.

وبالسنة بياناً وتأويلاً، يَرجع المتشابه إلى محكمه وتفصيله.

وبالسنة كذلك، يتحقق الإيمان بالكتاب كله، وتنتفي عنه وجوه الاختلاف، وتتجلىٰ فيه آيات الاتفاق والائتلاف.

وبتقديم بيان السنة، والتزامه، تسد ذرائع الزيغ، وسبل الضلال والانحراف والفرقة.

وهذا الأصل قاضٍ بوجوب أخذ العلم من القرآن والسنة معاً، وامتناع أخذ العلم من القرآن دون السنة.

٣ ـ الإجماع والقياس مصدران فرعيان، يرجعان إلى الوحي، وينهضان على دلالته، فأما الإجماع، فيشكل ضابطاً

من ضوابط التأويل، إذ يحول دون تضارب الأقوال، وتزاحم المذاهب، وتفلُّت الاجتهادات، بينما يساهم العمل بالقياس ـ في هذا المجال ـ بالجمع بين النظائر والأشباه، وتمييز وجوه الاختلاف، ويحفظ الشرع من الجمود، باتساعه للمستجدات، وامتداده مع الحوادث.

وفي مجال القياس، يمتزج العقل بالنقل، ويلتقي الفهم الإنساني، بالمصدر الرباني، إذ هو مؤلف من العلة، أو الوصف المؤثر، الذي نُصَّ عليه، أو دل عليه النص، ومن تتبع هذه العلة، وذاك الشبه في نصوص الوحي، والجمع بينها وبين أمثالها ونظائرها من المستجدات، وإعطاء الحادثة الجديدة، حكم مثلها مما نص عليه الشارع.

وللعقل الذي تشبَّع بروح الوحي، واستقام في محاكمته ونظره على منهجه، في هذا العمل، دور الوسيلة والأداة، دون أن يرقى إلى البت وإصدار الحكم، فذلك من أخص خصائص الألوهية، ويتضح ذلك جلياً، في التزام المجتهد للعلل المؤثرة في الأحكام، والأوصاف المعتبرة نصاً، في إيقاع الحكم.

وفي منهج أهل السنة أصول علمية غير ما ذكرت، يأتي بيانها في حينه إن شاء الله.

أما النوع الثالث: من الأصول العملية، (فإضافة لأركان الإسلام، المذكورة في الحديث والتي تقيم أسس التربية الفردية وتبنيها،) فهي تشمل ضوابط الحركة الاجتماعية، أو المعنى العام للسياسة الشرعية، وهي التي تبني وتشكِّل معالم الحركة الاجتماعية، وتقودها نحو أهدافها، بعد أن تحددت هذه الأهداف، من خلال المثل والمباديء الإيمانية.

وأبرز الأصول العملية في منهج أهل السنة والجماعة:

١ ـ لزوم الجماعة:

ولزوم الجماعة في منهج أهل السنة وميزانهم، قضية كلية، تتفرع عنها لوازم كثيرة، تتجلىٰ فيها عوامل الوحدة الإيمانية، وأسباب قوة المسلمين، وكيف لا، وشعار الجماعة شطر للإسم الذي هو علم على منهجها؟.

ولزوم الجماعة يقتضي من المسلم واجبات، تتنوع باختلاف أحوال المسلمين:

فإذا وجد للمسلمين إمام، فلزوم الجماعة يقضي بلزوم طاعته وذلك بطاعته في طاعة الله، ومعصيته في معصيته، وفي نصحه وأداء كلمة الحق؛ وإن كرهها. ومن طاعته: إعانته على كل خارج ومتمرد، يريد تفريق الجماعة، ما لم يَظهر منه الكفر البواح، الذي لا خفاء به، ولا شبهة ولا تأويل.

وإذا لم يوجد للمسلمين إمام، فلزوم الجماعة يفرض السعي لإيجاده ونصبه، وتهيئة الأسباب المؤدية لذلك.

ومن لزوم الجماعة؛ إعطاء الولاء للمؤمنين، والبراء من الكافرين، والمشاركة في التعاون على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. والجهاد مع إمام المسلمين، وإن اتصف بظلمٍ أو بدعة غير مكفرة.

ومن لزوم الجماعة، لزوم إجماع المسلمين، وعدم الخروج عليه، إذ أن الخروج على الإجماع، من أعظم أسباب الفرقة والتناحر.

ومن لزوم الجماعة، السعي بالحب والتراحم بين المسلمين، وإقامة التعاون والتكافل والتسامح، والقضاء على الغيبة والفساد، والأخذ على يد الظالم، ومنعه من ظلمه.

فالمسلم في كل أحواله ملزم بالجماعة، مأمور بها، يجب عليه الانضواء تحت لوائها، والسير على منهاجها، فلا تبرأ ذمته إلا بلزوم الجماعة.

ومن أعجب الأمور، أن ترى أناساً من أهل العلم والعمل، يخاصمون الناس على الانتساب لأهل السنة (والجماعة)! في حين أنهم نافرون من الجماعة، أو منفِّرون عنها!.

وأعجب من ذلك، أن حجة هؤلاء في الفرار من الجماعة، أن علماء السلف، أمثال الإمام البخاري، والإمام أحمد، وشيخ الإسلام ابن تيمية وقبلهم: عبدالله بن مسعود، الصحابي الجليل وأخوانه، وغيرهم من أئمة السلف، هؤلاء لم تكن لهم ـ على رأي هؤلاء الأخوة ـ جماعة، ولم يكونوا في جماعة!!.

وفي رأيي أن هؤلاء الأخوة، لم يقعوا في هذا الغلط، إلا بعد أن تعلق فكرهم بشكل واحد من أشكال الجماعة، وهو شكل التجمعات الإسلامية الموجودة اليوم على الساحة، ووقفوا عنده. وإلا أليس لزوم طاعة إمام المسلمين في دولة الإسلام لزوماً للجماعة؟ أم أن الأمة التي اجتمعت على طاعة هذا الإمام ليست بجماعة؟ وإذا كانت الجماعة (الأم) قائمة في تلك العصور، وإمامها منصوب، فما هو المفروض على المسلم غير التزام هذه الجماعة؟.

إن أولئك الأئمة جميعاً، كانوا في دولة إسلامية، تحكم بشرع الله، وترفع شعار التوحيد، وتجاهد لمد رقعة هذه الدولة، ونشر دعوة الإسلام، أو لدفع أعداء الله عن حرماتها، وأرضها وأبنائها. فهم غير مكلفين بأكثر من هذا، في لزوم الجماعة. وقد كانوا على ذلك، قائمين بأمر الجهاد، آمرين ـ

بالمعروف، نـاهين عن المنكـر، محاربـين للبدع، ذابيـن عن حرمات الدين، وتلك هي فرائض الجـماعة في مثـل حالهم. والتسوية بين ذلك الحال، وبين أحوال المسلمين اليوم، في دول تشرع لهم غـير ما أنـزل الله، وتقصي شرع الله من حياتهم، وترفع رايات صليبية جاهلية، كالديموقراطيـة، والاشتراكيـة، والقومية العرقية الجاهلية، هي تسوية بين الهدي والضلال، والتوحيد والجحود، والجاهلية والإسلام.

إنه لن تبرأ ذمة المسلمين اليوم؛ إلا أن يرصوا صفوفهم، ويعدوا عدتهم، لاستئناف الحياة الإسلامية صحيحة تامة، وإلا برفع راية التوحيد، ولن تبرأ ذمتهم، ما داموا على حالهم، من الاكتفاء بأخذ جوانب من الإسلام، والاهتمام ببعض الـدين دون بعض، والهجمة الصليبية بشتى صورها ووسائلها، بـترك معاقلهم واحداً بعـد الآخر وتجلب عليهم بخيلهـا ورجلها، وتأخذ عليهم السبل، وتضيق كل رحب، وتدفع بصنائعها، ليجوسوا خلال الديار، وليسوؤا الـوجوه، وليتـبروا ما علوا، ويهلكوا الحرث والنسل.

إن الأصول العلمية، التي يحملها دعاة السنة، ويتحركون تحت لوائها في كل ميدان، هي أصول قيام الجماعة الراشدة، وقواعد الاجتماع الإسلامي، فلا معنى للتمسك بالوسائل، إذا لم يتلازم مع الحرص على الغاية، فالغاية بلا ريب مقدمة على

الوسيلة. فما فائدة تحمل العناء، وبذل الجهد، في سبيل إحياء أصول السنة والجماعة علمياً، إذ كنا لا ننوي رفع البناء فوق هذه الأصول، ولا نؤمن بجدوى العمل والجماعة؟؟.

٢ ــ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، دعامة من دعائم الاجتماع الإسلامي، وركيزة من أهم ركائزه، وفرض من فرائضه، به يستقيم العوج، وتطارد الرذائل، ويمكّن للفضيلة، وخلال الخير والصلاح، وينتفي الظلم، وأسباب الشر والفساد.

وهذا الأصل واجب على كل مسلم، لا تبرؤ ذمته، حتى يقوم به وسع طاقته، ويتأكد هذا الوجوب، وتزداد مسؤولياته، كلما قلَّ العاملون، وكثر الفساد، كما هو الحال في أيامنا.

٣ ــ محاربة البدعة:

الدين نظام للتوحيد، والتوحيد علم واستسلام، وعبادة واتباع، أما البدعة، فهي مزاحمة لله سبحانه، في أخصِّ خصائصه، ومشاركة له في تشريعه. وإفساد لنظام التوحيد، وخلخلة لربانية التشريع، وزرع لأسباب الانحراف، ووسائل

الشقاق، وإن بدا ذلك كله في ثوب من الورع خادع، وزخرف من القول ماكر.

فوراء كل بدعة في الدين؛ سوء ظن فيه، ورغبة في استدراك نقص مزعوم، أو إضافة كمال موهوم.

وبحسب امرىء من الشر والفساد، أن يضع نفسه في هذا الموضع، أو يرى بشراً أهلاً له، وبحسب عقله من الضلالة، أن يظن بالله هذا الظن المبير.

فالبدعة أخطر معاول الهدم للدين، وشر وسائل الفرقة والاختلاف، وإزالتها من أوجب واجبات المسلم، وأُولىٰ ضرورات صيانة منهج الجماعة المسلمة، وأسباب بقائها وقوتها.

٤ ـ القول بالحق جهراً:

القول بالحق، والجهر به، سنة الأنبياء والمرسلين، وسبيل الورثة المؤمنين، يُعلون به منار الحق، ويظهرون أعلامه، ويدفعون بلسانه؛ تحريف الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتأويل الغالين، وشبهات الملحدين، ليبقىٰ ظاهراً غالباً. ولولا ذلك؛ لأضل الناس شبهات المنحرفين، وأغرقتهم جهالات الجاهلين، فلا يبغضه إلا جاهل أو غالٍ أو متعصب، ولا يلزمه إلا مؤمن

منصف مخلص، لما فيه من إرغام لهوى النفس، وقوامة بالحق، ولو على نفس المسلم، أو الأقربين، أو المعظمين والمحبوبين.

والجهر بالحق عهد رسول الله؛ وبيعته لأصحابه، كما رواه البخاري رحمه الله، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم ـ أو نقول ـ[1] بالحق حيثما كنا ولا نخاف في الله لومة لائم»[2].

والقيام بالحق، فعلاً وقولاً، أصل من أصول المنهج الرابح، خلافاً لما يتوهم البعض، أنه يفرق الصف، ويشتت الكلمة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[3].

٥ ـ الشورى:

الشورى ركن من أركان التربية الإسلامية، وأصل من أصول اجتماع المسلمين. إذ هي تستخرج صافي الرأي،

---

(١) القول بالحق هو بعض القيام به، فلا تعارض.

(٢) فتح الباري: ١٣/٢٠٤. (٣) سورة العصر: آية ١ ـ ٣.

وخـالص النصيحة، وتجمـع شتات الآراء والأفكـار، وتؤلف القلوب، وبها يلتقي الكل في واحد، ويتصل الواحد بالكل، فلا يطوىٰ دونه رأي، ولا تفوته معرفـة، ولا يعوزه نصـح، والشورى من أقوى طرق ترتيب الأفكـار، لمواجهـة الأزمات والمعضلات، واستنباط الحلول، والتخطيط للحركة والدعوة. وتبرز أعظم مزاياها، في المجالات العامة؛ والقضايا العملية، خارج دائرة النصوص؛ والقواعد التشريعية؛ وذلك في تقدير المصالح، وترتيب الأولويات، ورسم الخطوات.

والتربية الشورویة، من القواعد التي لم يتحدد مفهومها، ولم تأخذ مكانها في حياة المسلمين، ولم تبرز أبعادها، أو يترسخ دورها في دعوتهم.

الخاتمة

وأخيراً نصل إلى آخر كلمات حديث جبريل عليه السلام:

قال: «أخبرني عن الساعة». قال ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» قال: «فأخبرني عن أماراتها» قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة؛ رعاء الشاء يتطاولون في البنيان».

قال عمر رضي الله عنه: «فلبثت ملياً[1]، ثم قال لي: «يا عمر، أتدري من الرجل»؟ قلت: «الله ورسوله أعلم». قال: «فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم».

وقبل أن أمضي في بيان مغزى هذه الكلمات، أريد أن أذكّر بحديث آخر، من رواية البخاري، يتحدث عن علامات الساعة، لعلاقته بمعنى الكلمات الباقية في هذا الحديث، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينما النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: (متى الساعة)؟ فمضىٰ رسول الله ﷺ يحدِّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال، فكره

(١) وقتاً طويلاً.

ما قال. وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذا قضىٰ حديثه؛ قال: (أني أُراه السائل عن الساعة)؟ قال: (ها أنا يا رسول الله). قال: (فإذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة) قال: (كيف إضاعتها)؟ قال: (إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة). »[1].

ففي الفقرة الأخيرة من حديث جبريل، وفي حديث أبي هريرة هذا؛ معنىٰ واحد جاء بألفاظ متغايرة، يظهر بالتأمل اتفاقها.

فكثرة اتخاذ السراري والجواري، طلباً للذة، وإشباعاً للشهوة، وانصراف المساكين من المسلمين، إلى التطاول في البنيان، طلباً للتفاخر والتكاثر، علامات تدل بوضوح على تغير مفاهيم المجتمع الإسلامي، وانحراف سلوكياته، وانصرافه عن احتمال أعباء الجهاد، والرباط في ثغور الإسلام، في مختلف المجالات، فما دام مساكين المسلمين، وهم الذين كانت تسد بهم الثغور، وتتقىٰ المكاره، قد تحولوا عن أخلاقهم إلى هذا الحضيض، فغيرهم من الأغنياء والمترفين، قد سبقوهم بعيداً، في مضمار التفاخر والتكاثر؛ من اللذائذ والمتع العابرة.

ومعنىٰ ذلك أن المجتمع الإسلامي، يكون قد أضاع أمانته

---

(١) فتح الباري: ١/ ١٧١.

الكبرىٰ، وهي أمانة الاستخلاف والإصلاح، وانصرف عن أهدافه السامية، وغاياته الشريفة، واستبدل بها سبيل التسابق على العاجلة، والتهالك على متعها. وهذا المعنى هو ما صرّح به حديث أبي هريرة، جواباً على سؤال الأعرابي:

«فإذا ضيِّعت الأمانة فانتظر الساعة».

وهذه المعاني التي تضمنها الحديث النبوي، تأتي بفرض التعليم، كما صرح به الحديث، وهذا التعليم كما ترى؛ ليس مقتصراً على تعليم أصول الدين، بعيداً عن بيان منهجه العملي، ومرتكزاته السببية، بل هو بيان منهجي، يتميز بالترابط والتكامل، ويجمع بين الأسباب والنتائج، وسنن البناء، وعوامل الهدم.

إن فقه الدعوة والحركة، يقوم على فهم العلاقة بين أهداف الدعوة، وبين الأسباب المؤدية إليها، وامتلاك القدرة على استشراف آفاق المستقبل، وتقريب معالمه للنظر، ورصد احتمالاته، من خلال ذلك البصر السنني النافذ.

وإن من أوليات هذا الفهم الذي أرسىٰ الإسلام قواعده في عقول أتباعه، وطالبهم بامتلاكه وتسخيره، والنظر من خلاله في آفاق المستقبل، أن يدرك المسلمون أثر تصورات الإنسان واعتقاده؛ في رسم منهاجه، وتحديد مسلكه، ودور

الأصول الفكرية الإنسانية، في رسم أبعاد المستقبل، وتحديد معالمه، ولقد جاءت الكلمات الربانية، لتحدد أبرز صفات الرجل الرباني، كما في الحديث القدسي الذي سبق[1] ذكره: «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها..».

وهذه الصفات تعني أن رجل الاستخلاف، صاحب الإمامة، يسمع بهدي الله، ويبصر بنوره، بعد أن امتلك ميزاناً سببياً فذاً، يحلل به الحدث، ويقرأ ملابساته، ويستنبط دروسه.

وبهذا نعلم يقيناً، أن عمل الإنسان، فرداً أو جماعة، مقيد بتصوراته وقناعاته، ومحكوم بأصوله العلمية، التي تحدد له مفهوم الخير والشر، والحق والباطل.

ومن هنا يجب أن يتعلم المسلمون، أن يرسموا مستقبل سلوك الجماعات والأفراد، على ضوء تصورات أولئك المعنيين ومعتقداتهم، وأصولهم ومفاهيمهم. وأن الطريق إلى معرفة حقيقة النوايا المكتومة، يبدأ من هنا، وكل ما يتعارض مع هذا المؤشر السني الصادق؛ من دعايات وأكاذيب مضللة، فليس إلا تخديراً للعقل، وتضليلاً للفكر، لا يجوز أن نلدغ منه مرتان:

---

(١) راجع الصفحة (١٨٨) من هذا الكتاب.

فصاحب الفكر الصليبي، الذي يستر حقيقته وراء شعار العلمانية، ويغطي انحرافه بشعارات الحرية والمساواة وأمثالها، لا يمكن أن ينقطع حقده على الإسلام، ولا حربه ولأهله.

والفكر (غير الديني) عقيم عن أن ينجب؛ سوى الفساد والشذوذ والتمرد.

وحملة الأفكار الباطنية، التي يهدم أصول الدين، وتحرف منهجه، والذين يحقدون على أعلامه وقادته، يستحيل أن يسالموا أهله اليوم، أو يمدّوا لهم يد الصدق والبر.

والأفكار المنحرفة، التي زرعتها الفرق البائدة في صفوف الأمة، لن تنجب صفاً موحداً، ولن تبني منهجاً راشداً.

فالخطوة الأولىٰ في سبيل وحدة المسلمين، هي في وحدة العقيدة، ثم وحدة التصورات والمثل الأساسية.

ثم تأتي وحدة الأصول العلمية، ووحدة الأصول العملية، الفردية والجماعية.

ومن ثمَّ: وحدة المسار والهدف، ووحدة الفهم والصف، والكلمة والجهود: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾[1].

---

(١) سورة الإسراء: آية ٨٤.

ولقد حان الوقت الذي يجتمع فيه أهل السنة على منهاجهم، ويسترشدوا بهدي أصوله، ويرفعوا رايته، إذ هو اليوم ميراث النبوة الباقي دون غيره، ومناط العصمة، بعد انقطاع النبوة، وهو السبيل الذي يحفظ ربانية هذا الدين، ويتسع لكل من يؤوب إليه من أبناء الأمة، بعد أن شتتهم السبل، وفرقتهم الآراء والاجتهادات، ليعيدوا للأمة جماعتها الراشدة، بولائهم لمنهج السنة المعصوم، بدلاً من التفرق على ولاء الأشخاص، أو المذاهب، أو الكبراء، أو الأقربين نسباً؛ ومصلحة؛ وهوى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

يوم الأربعاء ٥ شوال ١٤٠٩ هـ/ ١٠/٥/١٩٨٩ م

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٥٣.

ثبت المراجع

١ ـ الإبانة عن أصول الديانة، أبو الحسن الأشعري، ط. دمشق.
٢ ـ إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، ط. عالم الكتب، بيروت.
٣ ـ الإعتقاد، أبو بكر البيهقي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.
٤ ـ الإيمان بالله (سلسلة العقائد)، أحمد عزالدين البيانوني، ط. دار السلام، القاهرة.
٥ ـ تفسير القرآن العظيم، الحافظ ابن كثير، ط. مكتبة دار التراث، القاهرة.
٦ ـ تقريب التهذيب، الحافظ ابن حجر العسقلاني، ط. دار المعرفة، بيروت.
٧ ـ حاشية الصاوي على الجلالين، العلامة أحمد الصاوي.
٨ ـ الرسالة (تحقيق أحمد شاكر)، الإمام الشافعي، مصورة عن الطبعة المصرية (دون ذكر الدار).

٩ ــ سلسلة الأحاديث الصحيحة، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، بيروت.

١٠ ــ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن قيم الجوزية، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

١١ ــ صحيح الجامع الصغير وزيادته، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي، بيروت.

١٢ ــ صحيح سنن الترمذي، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتب التربية العربي لدول الخليج، بإشراف زهير الشاويش، صاحب المكتب الإسلامي.

١٣ ــ صحيح سنن ابن ماجه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتب التربية العربي لدول الخليج، بإشراف زهير الشاويش، صاحب المكتب الإسلامي.

١٤ ــ صحيح البخاري، ط. عالم الكتب، مصورة من طبعة المنيرية.

١٥ ــ صحيح الإمام مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج/ ترتيب فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

١٦ ــ صحيح الإمام مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج، ط. دار الآفاق الجديدة، بيروت.

١٧ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، الحافظ ابن حجر العسقلاني ـ ترتيب فؤاد عبدالباقي، ط. المكتبة السلفية، القاهرة.

١٨ ـ القرآن الكريم، مصحف المدينة المنورة.

١٩ ـ لسان العرب، ابن منظور الأفريقي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٠ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام، أحمد بن تيمية، تصوير الطبعة الأولى، مطابع دار العربية.

٢١ ـ المستخلص، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة.

٢٢ ـ المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت.

٢٣ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن الأشعري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ثبت الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة